أطياف الشمس - رواية

فادي قوشقجي

القسم الأول

كُنْ

-١-

"أريد أن أكتب، أريد أن أملأ العالم كلاماً وأفكاراً، أريد أن أضيئ، بنور الكلمة، كل ورقة بيضاء تقع تحت يديَّ"

تـردد صـدى الكـلمات داخـل نفسـه بشكل فخم، لكنه عذب في الآن نفسه. شعر بشيء من النشوة وهو يسـتعيد الأحـرف ببطء لذيذ، ثم انعطف نحو اليمين، إلى حيث تقع المكتبة التي اعتاد أن يشتري منها أدواته، وأخرج منديلاً مسح به حبات العرق التي تراكمت فوق جبينه، وأخذ يحث الخطى.

"أريد أن أكتب. نعم. لدي الكثير لأقوله. الصمت جريمة! لن أدع نفسي أسقط إلى قاع الكسل والصمت. سأقول كل شيء، ولن يكون شيئاً عادياً. هذه الرواية ستكون حدثاً يهز هذا الركود الرمادي الكئيب"

ثم كرر:

"هذه الرواية ستكون حدثاً"

الكـلمة الأخـيرة أفلـتت مـن شـفتيه، وقـد كـان في الوقت نفسه يبتسم برضى. رمقه أحد المارة مبتسماً، فتنبه لنفسه:

"يا إلهي. يبدو أنني نطقت بشيء مما أفكر به. عليَّ أن أضبط نفسي بشكل أفضل"

بحث عن الشخص الذي ضبطه وهو يكلّم نفسه. كان لا يزال قريباً، لكنه لم يكن بعد ينظر إليه.

"يـبدو أنـه لا يعـرفني. هذا أفضل. الشهرة أحياناً عبء يحمله المرء على كتفيه. خذ مثلاً، لو كان هذا الشـخص الـذي ضـبطني الآن يعـرفني، لـملأ الدنيـا بهـذا الاكتشـاف المذهل، وبشماتة ربما: اسمعوا يا نـاس، شـجاع فارس أصبح يسير في الشوارع وهو يكلّم نفسه. أو ربما بشفقة: تصوروا المسكين. إنه يكلّم نفسه. الله يلطف فينا"

نظـر إلى الرجل، فرآه يشير إلى سيارة أجرة ويصعد إليها. يمكنه الآن أن يتابع طريقه باطمئنان، فسيارة الأجـرة مـرت للـتو بقـربه تمامـاً، دون أن يشمله الرجل ولو بنظرة. لو كان يعرفه، فلا شك أن الفضول كان سيدفعه لمتابعة مراقبته حتى يكتشف — متسلياً – إن كان الكاتب لا زال يكلّم نفسه.

"حسـناً، أنـا لم أجن على أية حال. هذا الأمر يحدث أحياناً. يستغرق المرء بأفكاره إلى حد الشرود عما حولـه، وفي لحظـة مـا، يجـد أن الكلمات لم تعد تجري داخل عقله وحسب، بل إن بعضاً منها يخرج عـلى لسانه دون أن يقصد ذلك. على كل حال، الحمد لله أنها لم تكن نجوى. ليضبطني أي مخلوق في هذا العالم وأنا أكلّم نفسي، إلا نجوى"

ابتسـم ابتسامة حذرة، خشية أن يضبطها شخص آخر، وتحسس ذقنه الحليقة جيداً، وهو يتذكر كيف كـاد في وقـت مضـى أن يـتأثر بـبعض المـنظّرين الذيـن يسـخرون مـن القشور، ويعتبرون الاهتمام الزائد

بالأناقـة والنظافة، سلوكاً بورجوازياً عفناً. في حينها، التقى صدفة في أحد الشوارع بامرأة تشبه نجوى. أجفـل، ثـم تحسـس ذقـنه الـتي كـانت طويـلة قـليلاً، ونظر إلى حذائه المتسخ قليلاً. كاد أن ينتقل إلى الجـانب الآخـر مـن الطـريق لكـي لا تلمحه نجوى وهو على هذه الحالة، لكن المرأة، التي كانت تسير أمامـه بمسـافة قصـيرة، التفتت فجأة إلى الخلف. كاد قلبه أن يتوقف في تلك اللحظات وهو ينتظر وجه نجـوى، لكـنه – ولحسـن الحظ – كان وجهاً آخر لامرأة بالكاد تشبه نجوى قليلاً. منذ ذلك اليوم، لم يعـد يخرج من منزله دون أن يكون في أبهى حلة، ففي كل يوم يمكن أن تظهر نجوى في طريقه، وعليه أن يكون لائقاً من أجل لقاء كهذا.

"هـل أكتـبكِ الآن يا نجوى؟ هل تكونين روايتي القادمة؟ ما رأيكِ؟ اسمعي: من المؤكد أنني سأكتبكِ في يوم من الأيام، لكنني أسألكِ فقط: هل حان الوقت؟"

كان قد أصبح عند المكتبة تماماً. مسح عرقه من جديد، ودخل.

– أهلاً أستاذ شجاع.

ونهضت الفتاة من خلف طاولتها بحبور صادق. كانت تبتسم بمودة وهي تمد يدها إليه مصافحة.

– صباح الخير آنسة نها.

– صباح الورد والياسمين لأديبنا الجميل.

ابتسـم بسـعادة. "مـن قـال إن الأديـب عـليه أن يـرتفع فوق عبارات المديح؟ هراء! المرء يحتاج إلى هذه الكـلمات ويسـعد بهـا، مهمـا حاول إظهار ترفعه عنها، فكيف إذا جاءت من صبية جميلة ذات جسد برونزي آسر؟"

– تفضل. تفضل.

قالتها وهي تقرّب له كرسياً، فاعترض:

– شكراً آنسة نها، لكنني في الحقيقة مستعجل قليلاً.

– طالما قليلاً فقط، إذن ستجلس.

قالـتها بـلهجة ناعمـة آمرة. إنها تشعر إذن أن لها دالة عليه، وإن كانت كل امرأة جميلة، في الواقع، لها دالة عليه. جلس بارتباك فيما كانت تقول:

– حماتك تحبك. وضعت الركوة على النار قبل قليل. لقد ملأتها بكاملها وكأنني كنت أتوقع قدوم ضيف عزيز يشاركني بها.

– لكن آنسة نها...

– هس. لا أعذار. الماء يغلي والأمر لن يستغرق وقتاً طويلاً.

انحنت نحو السخان الكهربائي دون أن تنتظر إجابته، وتناولت ركوة الماء المغلي، وملأتها بثلاث ملاعق كبيرة من البن. قالت وهي تحرّك القهوة بالملعقة:

— أنت لا تمر بنا كثيراً هذه الأيام، ثم تريد أن تمضي هكذا كأي زبون يأخذ حاجته ويمضي؟ لا يجوز أستاذ شجاع، لا يجوز.

كانت أنظارها معلقة بركوة القهوة مخافة أن ينسفح شيء منها على السخان. كانت تقرّبها وتبعدها بطريقة شبه راقصة. رفعتها أخيراً، ووضعتها فوق المنضدة التي تفصل بينهما، ثم نهضت، وسوّت وضع بلوزتها التي كانت قد ارتفعت قليلاً كاشفة عن بطن جميل أملس، واختفت للحظات عادت بعدها آتية بفنجانين.

جلست مجدداً، وأخذت تصب القهوة وهي تقول:

— ما الأخبار أستاذ شجاع؟ هل تكتب لنا شيئاً جديداً؟

أشعل سيجارته، وتناول الفنجان من يدها وقال:

— في الحقيقة، سأبدأ حالاً بكتابة رواية جديدة.

شهقت بفرح:

— رائع. أنت تحتاج إلى رزمة أوراق وقلم جديد إذن.

ابتسم لها، سعيداً بأنها تحفظ طقوسه في الكتابة بشكل دقيق، وقال:

— بالضبط. بالضبط.

— حسناً. سآتيك بكل ما تحتاجه في النهاية، ولكن أخبرني، عمَّ ستكتب هذه المرة؟ أرجو أن يكون موضوعاً بهيجاً بعض الشيء. روايتك الأولى كلها سياسة بسياسة. أليس هناك موضوع للكتابة عنه إلا السياسة؟

دارى خيبته بابتسامة مجاملة، وقال:

— لا. هذه المرة لن تكون الرواية سياسية، لكن، بالنسبة للموضوع البهيج، فأنا لا أعدك بالكثير.

— ولكن لماذا أستاذ شجاع؟ لمَ كل هذا الحزن؟ اكتب فقط كما تعيش وستكون الرواية بهيجة. أنت، كما أسمع يعني، تعيش حياة مليئة بالضحك والفرح. لماذا تحتكرها لك وحدك، وحين تكتب إلينا تملأ كلماتك بالأحزان؟

ارتشف قليلاً من القهوة، وسحب نفساً من سيجارته. قال:

— ليست أحزاناً يا نها. ليست أحزاناً. تسمية الأمور بأسمائها مسألة لا علاقة لها بالحزن والفرح. أنا أسمّي الأمور بأسمائها، وأنتم تعتبرون ذلك حزيناً كئيباً. هذا ليس ذنبي. الأمور تجري بشكل سيء. هذا كل ما في الأمر.

"هل تفكر نجوى أيضاً بهذا الشكل؟ هل تعتقد، هي الأخرى، أن روايتي تلك جافة قليلاً لأنها تتناول مواضيع سياسية؟ لكن، هل قرأت الرواية أصلاً؟ هل سمعت باسمي ككاتب؟"

كانت نها أيضاً تفكر بما قاله، أجابت:

— يبقى أن هناك الكثير من الأمور البهيجة. هناك في الدنيا حب ورقص وغناء وصداقة. هناك الكثير جداً من الأمور اللذيذة والجميلة. خذ الطعام مثلاً...

قاطعها بصخب مرح:

— أنت تريدينني أن أكتب عن فن الطبخ إذن؟

ضحكت بعمق. كان يمكنها على الدوام أن تضحك باستغراق جميل على أية نكتة مهما كانت بسيطة. قالت:

— معاذ الله أستاذ شجاع. طبعاً لا. ربما تظن أنني سخيفة وسطحية، لكن لا. أنا لا أقصد أن تكتب روايات فارغة، لكن...يعني...لن أعرف أن أشرح لك رأيي تماماً، لكنني ألاحظ أن الكتّاب عندنا يميلون إلى التجهم والأحزان. أشعر أحياناً أنهم يرون في الحديث عن الحزن متعة، أو ربما وساماً معلقاً على صدورهم. سمعت وقرأت ألف مرة كاتباً أو شاعراً يقاطع محاوره بالقول: أنا يا سيدي إنسان مهنته الأحزان! لماذا؟ دائماً يبررون الأمر بأن هموم الوطن والأمة تسكنهم، لكن كيف يمكننا أن نواجه هموم الوطن والأمة بأشخاص شكائين بكائين، وبثقافة عبوسة إلى هذا الحد؟

كان يرتشف قهوته وهو يراقبها. كانت تتحدث بتدفق وصدق وحماس. كانت، حين تتحدث، وحين تضحك، وحين تحزن، تفعل ذلك بكل ذرات جسدها. "إنها فتاة نموذجية منذورة للفرح" فكر بذلك وهو يواصل الاستماع إليها، ثم أردف في سره: "نجوى أيضاً كانت كذلك. إنها الآن في مثل سن نجوى حين أحببتها. كانت بهيجة، تجبر المرء على أن يؤمن أن الحياة رائعة. ما أجمل أن يعيش المرء كل الانفعالات إلى أقصى مداها. ما أجمل أن يحيا بروح نجوى، أو بروح هذه الشابة!"

ثم جاءه على الفور إثبات على ذلك. انفتح باب المكتبة بصخب عن شاب ملؤه العافية والنشاط، ودخل تتقدمه كلماته المنغمة:

— هاأنذا.

أشرق وجهها كما الشمس، وتوردت وجنتاها وهي تنهض صائحة:

– فراس. الحمد لله على سلامتك.

تلاقت أيديهما بشوق، وكاد أن يضمها إليه، لولا أنها تراجعت قائلة:

– تعال أعرّفك على الأستاذ شجاع فارس.

رفع حاجبيه بدهشة وهو يتقدم مصافحاً:

– الأستاذ شجاع فارس؟ الروائي؟

أجابت بزهو:

– هو بذاته.

– تشرفنا أستاذ شجاع.

– شكراً لك.

تدخلت نها معرّفة:

– فراس.

واحمرت وجنتاها، مكملتين بتوردهما التعريف المنقوص. شعر أن عليه أن يتركهما للبهجة والحب، فقال:

– تشرفنا أستاذ فراس.

ثم التفت إلى نها قائلاً:

– والآن...

قاطعته مبتسمة:

– الأوراق والقلم.

تناول عدتّه وخرج شاكراً. كان إسفلت الشارع ينضح بالحرارة، وكان الناس يسيرون متأففين من شدة الحر، وهم يكررون في كل حديث كلمة "غضب من الله" مؤكدين مسؤوليتهم الأخلاقية عما يتعرضون له من عقاب. شعر بحاجة إلى نسمة منعشة، أية نسمة مهما كانت صغيرة، لكن هيهات. لا مكان للنسيم في هذه الأيام الحارقة. إذن ليس هناك إلا عيناها. نادى عينيها، فجاءتا إليه مبتسمتين.

"نهاركِ سعيد نجوى. كيف أنتِ؟ كيف حال البحر؟"

وهبت على روحه نسمة بحرية منعشة. اختفت أبواق السيارات، تلاشى الغبار، وانسحبت الشمس الحارقة. ابتعد الضجيج، وخفتت أصوات الناس وأجهزة التسجيل التي تملأ المحلات التجارية، ثم...لا شيء إلا عينيها.

"سعيدة أنتِ؟ قولي لي، أرجوكِ. هل هي هناك لا تزال، فوق ثغركِ الجميل، تلك الابتسامة الرائقة؟ ابتسمي حبيبتي. ها أنا أقولها. ليس بمقدوركِ الآن أن تمنعيني من أن أناديكِ حبيبتي. ابتسمي تلك الابتسامة، التي بقدر ما هي رقيقة هادئة، كانت بالنسبة لي تياراً بحرياً هائلاً شدني بقوة لم أستطع مقاومتها لأن أرتكب تلك الأيام"

تنهد بعمق، ولاح طيف ابتسامة على شفتيه.

"اسمعي نجوى. سأبدأ اليوم بكتابة رواية جديدة. ترى هل قرأتِ روايتي الأولى؟ هل أعجبتكِ؟ لم أكتب عن الحب بعد. لم أكتب عنكِ. لكنني أعرف أن الموضوع الذي كتبت عنه يعنيكِ كثيراً. لن تقولي كما قالت نها إن عليَّ أن أبتعد قليلاً عن السياسة. ألم تقولي لي ذات مرة، وكل ما فيكِ يتألق، إن الوطن يسكنكِ بهمومه. لقد كان يسكن روايتي تلك أيضاً. سيأتي يوم أكتب فيه عنكِ، وستكون تلك رواية عمري، لكن الوقت لم يحن بعد. أو...أو...لا أدري. هل حان؟ هل أقولكِ الآن، لأوقن في خاتمة المطاف بأن الحكاية قد انتهت؟ أم أحتفظ بكِ، لأترك لنفسي فسحة ضئيلة من الأمل بأن أكتبكِ ذات يوم بعد أن تكتمل القصة؟"

توقف قرب محل لبيع الزهور، واشترى لعينيها باقة من القرنفل، ثم تابع طريقه.

"في ذلك اليوم، تذكرين؟ قلتِ لي: "هل تحب الشعر؟" فرفعت حاجبيَّ بدهشة، وسألتكِ: "أنتِ تكتبين الشعر؟" أومأتِ أن نعم، ثم قلتِ: "أكتب شعراً باللهجة المحكية" شعرتُ في حينها ببعض الخيبة، وقد لاحظتِ ذلك، فسألتِني: "ماذا؟ ألا تحبه؟" وقد كنت في الحقيقة لا أحبه كثيراً، لكنني قلت بارتباك لكي لا أخيّب أملكِ: "يعني...ليست المسألة أنني لا أحبه، ولكنني لا أسمع شعراً جيداً من هذا النوع إلا نادراً" قلتِ ببهاء: "سأجعلك تغيّر رأيك فيه، اسمع"، وانتظرت أن أسمع عن الحب، عن السماء والنجوم والورود والقمر، لكنني سمعت الوطن ينساب من شفتيكِ. لم أعرف إن كان الشعر جيداً، فأنا لم أهتم كثيراً لذلك، لكنكِ استحوذتِ على روحي بتلك الكلمات. إحدى وعشرون سنة، مع تلك الرقة الهشة، وذلك الجمال الساحر، وتلك الأناقة المرهفة...كل ذلك كان ينبغي به أن يجعلكِ تكتبين عن الحب والأحلام، لكنكِ استحضرتِ بدلاً من ذلك فلسطين، وجعلتِ تنسجينها بالكلمات، حلماً لا كتلك الأحلام. قلت لكِ: "أنتِ رائعة" فابتسمتِ، وسألتِني: "أعجبك شعري؟" قلت بحماس: "جداً" ثم لاحت لي ذكرى تلك الأيام الطفولية، حين كنت أهوى أن أكتب قصصاً صغيرة، ثم أمزقها وأرميها، وقلت في سري إنني سأعود يوماً إلى الكتابة"

— أستاذ شجاع.

أجفل وهو يعود بروحه إلى الازدحام والغبار، فاقترب منه حسان محيياً:

– كيف حالك أستاذ شجاع؟

– أهلاً. أهلاً.

قال الرجل مبتسماً:

– ماذا تفعل في ديارنا؟

نظر إليه شجاع بدهشة، وتلفت حوله، ثم قال:

– هل هذه ديارك؟

ضحك حسان وقال:

– كل ما يحيط بوزارة المالية يدخل في اختصاصي. أنت تعلم ذلك جيداً.

ضحك شجاع مجاملاً، فقال حسان:

– اليوم سنجتمع عند الدكتور فايز من أجل الاتفاق على موضوع تركيب باب حديدي للبناء. هل أبلغوك؟

– لا. ليس بعد.

قال حسان متأففاً:

– يا أخي أم علي هذه، ليكن الله في عوننا عليها. حين تلاحق مسألة ما، تظل تلح عليها حتى تتحقق.

– لا بأس. سيدة كبيرة وعلينا أن نسايرها.

– إذن أراك في المساء أستاذ شجاع. عليَّ أن أتابع جولتي.

قال حسان ذلك وهو يمد يده مصافحاً بنشاط، والابتسامة لا تفارق وجهه، ثم مضى في طريقه. تابعه شجاع وهو يبتسم. كان دوماً نشيطاً مبتسماً، متأبطاً تلك الحقيبة التي كادت تصبح جزءاً من صورته. همهم شجاع بسخرية، وقال في سره:

"من نجوى إلى حسان. أي هبوط مدوٍ هو هذا؟!"

عاد الحر والازدحام والغبار. عاد ضجيج السيارات والمارة وأجهزة التسجيل. قرر أن يهرب من كل ذلك، فأشار إلى سيارة أجرة. حين انطلقت السيارة به، سرحت أفكاره من جديد:

"رواية وحيدة حتى الآن. لا بأس بذلك على أية حال، فأنت لا تزال في السادسة والثلاثين من العمر، ولديك متسع من الوقت. ولكن...ولكن...لا بد من الاعتراف. الرواية لم تضرب أرقاماً قياسية في البيع أو في ترحيب النقاد، ولم تُطبع طبعة ثانية. لماذا؟ على أية حال، الأمر لا يهم. إنها مجرد البداية. ولكن ألستُ مخطئاً قليلاً في تفكيري؟ أبحث عن موضوع بعيد عن القضايا الكبرى، وأفترض رغم ذلك

أن الرواية الجديدة ستكون حدثاً؟ ثم ماذا في هذه المدينة من أشياء كبيرة للحديث عنها؟ ماذا غير الثرثرة والفراغ والغبار؟"

— كذابون كلاب!

قطعت عليه شتيمة السائق أفكاره، فنظر إليه بدهشة وسأله:

— خير يا أخ؟ من هم الكذابون الكلاب؟

كان السائق يدير مؤشر الراديو إلى محطة أخرى. أجابه:

— ألم تسمع؟ يقولون إن أمريكا ستضغط على إسرائيل من أجل السلام. كلاب. كلهم يهود. أقسم بشرفي يا أستاذ إنهم يهود. ويقولون لك دولة عظمى. أية دولة عظمى هذه التي تخوّفها دولة صغيرة لا تكاد تظهر على الخارطة مثل إسرائيل؟ تفو!

ابتسم شجاع وقال:

— بسيطة. ليس في الأمر جديد على أية حال.

— يا أستاذ، يا أستاذ. أنت تقول بسيطة؟ يظهر عليك أنك رجل مثقف، ورغم ذلك تقول بسيطة؟ هؤلاء الناس لا هدف لهم إلا ضررنا. إنهم يخافون من العرب لأنهم يعرفون أن العرب إذا توحدوا لا يقف في وجههم أحد. أليس كذلك؟ بشرفك، أليس كذلك؟

قال شجاع بجدية:

— يعني...ربما. محتمل. لكنهم ليسوا قادرين على كل شيء على أية حال. يمكننا أن...

— يمكننا ماذا يا أستاذ؟ لا يمكننا إلا أن نركب زوجاتنا وننجب المزيد من الأطفال. شعب فحل.

صمت قليلاً ثم أضاف بنبرة تحليلية ذكية:

— لكن يا أستاذ خذها من هذه الشيبة. النصر لنا. أتعرف لماذا؟ لأن الله معنا. "ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين" صدق الله العظيم. نعم. الله سينصرنا عاجلاً أم آجلاً. ألم ترَ كيف حطم الله دولة الملحدين السوفييت؟ كانت دولة عظمى، ثم، فجأة، سقطت بدون رصاصة واحدة. سبحان القادر على كل شيء.

— هنا من فضلك.

أوقف السائق سيارته، وأخرج شجاع محفظته ليدفع له، فتابع بنبرة من سيلقي بخبر سري خطير:

— سمعت أن الصين ستكون دولة أعظم بكثير من أمريكا عما قريب، وهؤلاء يمكن أن يساعدونا. ما رأيك يا أستاذ؟

قال شجاع وهو يناوله النقود مبتسماً:

– لكن هؤلاء أيضاً كفار يا صديقي.

– سيدي. ليأتِ الفرج على يد من يأتي به، ثم، الله يتصرف من عنده مع الكفار.

ترجل شجاع من السيارة بعد أن تجاهل السائق إعادة باقي الخمسين ليرة له، وراقب السيارة وهي تبتعد وهو يقول في سره مبتسماً بسخرية:

"أين يمكن، في هذا البلد، أن يعثر المرء على شخص لا يفهم في السياسة ويتحدث بها؟ كل الناس تعرف كل الحقيقة، ورغم ذلك..."

همهم بأسى، ودخل إلى البناء الذي تقع فيه شقته، وأخذ يصعد السلالم مسرعاً، متشوقاً إلى اللحظة التي ينفرد فيها بأوراقه. كان قد جهز نفسه لأيام طويلة من الكتابة. بالأمس، حين أغلق العيادة، ألصق على بابها ورقة كتب عليها: "العيادة مغلقة حتى إشعار آخر لإجراء بعض أعمال الصيانة" لم يكن هناك صيانة ولا شيء من هذا القبيل، ولكن ماذا سيكتب؟ "العيادة مغلقة لأن الدكتور يود أن يكتب رواية جديدة؟" كان مرضاه القلائل، وكل من يقرأ هذه الكلمات، سيسخرون منه. ها هو يحمل أوراقه ويتوجه نحو الوحدة. رزمة أوراق جديدة، وقلم جديد، هما أمران لا بد منهما مع كل رواية جديدة، مهما توفر لديه من فائض الأوراق والأقلام. كان يحب دائماً أن يبدأ بأدوات جديدة لم تستعمل من قبل. كان يسخر من نفسه أحياناً، ويقول إنه لا يليق برجل مثقف أن يربط إبداعه بأمور لها علاقة بالتفاؤل أو بالتطير، لكنه رغم ذلك لم يغيّر هذه العادة. الأوراق والأقلام بين يديه الآن، وكذلك بعض الأفكار للبداية. يمكنه دوماً أن يبدأ ببعض الأفكار. لا ضرورة لأن يكتمل الموضوع في ذهنه قبل أن يبدأ. أفكار وشخوص أولية، ثم تقوده هذه إلى المزيد، بعد أن يمنحها وجودها وحياتها على الورق.

عند باب شقة أم علي، جارته العجوز، وجدها واقفة مع شاب تتجادل وإياه حول شيء ما. دفعه الفضول لأن يقف قليلاً دون أن تراه. كانت أم علي تقول للشاب بنفاد صبر:

– اسمع يا بني. أنا أم علي. الجميع هنا يعرفونني، وأنا أعرف كل الجيران. قلت لك إنه لا يوجد أحد بهذا الاسم في هذا الشارع كله. أعرفهم بيتاً بيتاً، أكلت إلى موائدهم وأكلوا إلى مائدتي. أعرف أدق خباياهم، هل تريد أن أخبرك لماذا تشاجر أبو هيثم، أبو هيثم الذي في البناء التالي، مع زوجته فغضبت وعادت إلى بيت أهلها؟

قال الشاب متأففاً:

– يا خالة. يا خالة، أرجوك. سألتك وأجبتني. أنا مستعجل، لا تهمني حكاية أبي هيثم وأم هيثم.

همَّ بالمضي، فاستوقفته معترضة:

– ليست هي أم هيثم يا بني. هيثم ابنه من زواج سابق. اسمع...

طفح كيل الشاب. كان فيما يبدو قد سألها عن شخص ما، فأكدت له أنه غير موجود لا في هذا البناء ولا في الشارع كله، وطفقت تستعرض أمامه مهارتها في مجال الأنساب، فوقف المسكين معها احتراماً لسنها، أما الآن، فقد تركها ونزل السلالم كمن يفر بجلده من ورطة ما. مرَّ شجاع قرب بابها، فحياها:

– نهارك سعيد يا خالة.

– أهلاً يا بني.

وهم بمتابعة الصعود إلى شقته، فاستوقفته قائلة:

– أستاذ شجاع، اتفقنا أن نجتمع في السابعة من مساء اليوم في بيت الدكتور فايز من أجل موضوع الباب الحديدي للبناء. ستأتي، أليس كذلك؟

أجاب مبتسماً بمودة:

– ولو؟ طبعاً. من أجل عيون خالتي أم علي سآتي بكل تأكيد.

– حفظك الله يا بني. ليت كل الجيران مثلك.

ابتسم لها، وتابع طريقه نحو منزله الكائن في الطابق التالي.

-٢-

الأوراق والقلم وبعض الأفكار، ثم فنجان القهوة والوحدة، وشجاع يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً وهو يفكر بعمق، وبعصبية أحياناً، ويتكلم عن أفكاره بصوت مرتفع في بعض اللحظات.

"البداية ليست سهلة على الإطلاق. لقد قررت أنني سأكتب هذه المرة عن دمشق. لم يحن وقتكِ يا نجوى. أنا متأكد. ستكون لكِ روايتي الأجمل، أما الآن فأريد أن أكتب عن دمشق. دمشق البشر والأحاسيس والزفرات والأفراح والاحتمالات، ولكن لا بد من مزيد من التحديد. الراوي شاب في مقتبل العمر تخرج حديثاً من كلية الهندسة، وبتفوق، ولديه خبرة في الكمبيوتر، ومعرفة طليقة باللغة الإنكليزية، وطموح لا ينتهي. إنه ابن العصر إذن. يشبه، تقريباً يعني، ابن جاري حسان. إنه...إنه..."

اتجه فوراً إلى مقعده، وخطَّ بعض الكلمات. نهض مجدداً وأخذ يسير، ثم أشعل سيجارة، وتناول الورقة التي بدأ بالكتابة عليها، وأخذ يقرأها بتمعن، ثم مزقها بعصبية.

"حسناً، الراوي، ولنسمه قتيبة، هو ابن هذا العصر بامتياز، وهو يعيش تناقضاً لا حد له بين انتمائه بكل كيانه إلى العصر، وبين انكفاء مدينته العتيقة إلى الماضي. إنه ليس سيئاً بحال من الأحوال، بالعكس، فإن لديه الكثير من النوايا الطيبة، وبشكل ما يشعر بأنه أحد المنذورين لمصالحة مدينته مع العصر. ربما جعله هذا يتصرف ببعض الترفع، لكنه ليس ترفعاً يستمد وجوده من إحساس بدونية المقابلين له، بل من رغبته في الارتقاء بهم، حسب تصوره طبعاً، إلى آفاق جديدة، وثقته في المقابل أنه قد اخترق هذه الآفاق منذ زمن بعيد"

"جميل جداً، ولإيجاد أسباب الصدام الحاد بين قتيبة والمدينة، لا بد من جعل قتيبة نقيضاً لها إلى أبعد حد ممكن. مثلاً، يمكن القول إنه شاب عقلاني إلى درجة كبيرة، يضع العواطف في السلم الأخير من اهتماماته، ويركز انتباهه على العلم والعمل. هذا الشاب، لو قلتَ له إن المنتخب الوطني لكرة القدم قد خسر للتو مباراته مع الفريق المنافس رغم أنه هاجم بشكل رائع على مدى تسعين دقيقة، ثم اقتنص الخصوم فرصة واحدة وفازوا، فأنت ستقول ذلك – على الأرجح – والدمع يكاد يطفر من عينيك، أما هو فسيصدمك ببروده. إنه سيكتفي بأن يهز كتفيه باستخفاف ويقول: لكنهم يستحقون الفوز. ستدهش أنت، وستعترض سائلاً: لكن، هل شاهدت المباراة؟، وسيرد هو ببساطة: أبداً، لكن الفائز دوماً يستحق الفوز، مهما كان عدد الفرص التي استفاد منها ضئيلاً، والخاسر دوماً يستحق الخسارة مهما لعب وأجاد"

"يـا لهـا مـن عقـلية باردة تلك التي يمتلكها هذا الشاب الذي أوشك على أن أمنحه الحياة على الورق. إنـه لا يعجبني كثيراً، أو إنني لم أكن لأحبه لو تجسد أمامي، أما نجوى، فإنها لم تكن لتطيقه، لكنه بطلي، ولا بد أن أتصرف إزاءه بنزاهة مهما كان موقفي العاطفي تجاهه"

"قـل لقتيـبة إنـنا خسرنا حروبنا مع إسرائيل بسبب المؤامرات الدولية، عندئذ ستلقى ما لا يسرك. فهو سيحدجك دون شك بنظرة استنكار هائلة، ويجيبك، ساخراً بعض الشيء: هل أنت جاد؟ وعندما تؤكد لـه أنـك جاد، سيضحك واحدة من ضحكاته النادرة، ويقول: إذن الحق ليس علينا، بل على المؤامرات الـتي حاكهـا آخـرون أشـرار ضـدنا. ستسـتفزك سخريته، وستصرخ بعصبية: نحن مسؤولون بالتأكيد، ولكـن الإمـبريالية... عـند هـذا الحـد، لـن يدعـك تـتم حديثك، بل سيقول بانفعال، نادر هو الآخر: افهموهـا يـا بـني، حـين تكـون قويـاً، لـن تـنال منك مؤامرات العالم كله، وحين تكون ضعيفاً، فأنت مهزوم، بمؤامرات وبدونها"

جـلس، وسـجل بعـض الملاحظـات الـتي توصـل إليهـا حـول شخصية قتيبة، ثم صبَّ فنجاناً آخر من القهوة، وعاد يتمشى.

"عجيـب هـذا الشـاب. لـو جـرّك نقاش ما معه لأن تقول كلمة مثل: إن الأوطان تبنى بالدموع والآلام، لقطـب حاجـبيه قـليلاً، ثـم أجـابك بكلمة واحدة حاسمة: لا. وبما أنك كنت تظن أنك قد قلت حقيقة مسـلماً بصـحتها، فـإنك سـتجادل، أو ستسأل: كيف لا؟ وعندها سيتخذ هو مظهر الحكيم، وسيجيبك دون تـردد: لأن الأوطـان تبـنى بالعـلم والعمـل، أمـا الدموع، فدعها للضعفاء الذين لن تستطيع بهم أن تبني مجرد حارة"

قتيـبة إذن، قـد بـدأ يتخـلق في مخيـلة الكـاتب، وهـا هـي صـفاته تأخذ بالاتضاح شيئاً فشيئاً. الشاب المنتسـب بكـل كيانـه إلى عـالم العقـل، غير المعترف بجدوى أي عالم سواه، والمنتمي بقوة إلى الحضارة العلمية الحديثة، مبتعداً ما أمكنه عن أمجاد الماضي وعبق التراث.

"هـه. كـم سـيكون طـريفاً لـو جـرب المـرء أن يحـدّث قتيبة عن التاريخ، مؤكداً له أننا كنا ذوي أمجاد ومكـارم. عـندها، سـيداري عـدم خـبرته بالموضـوع، لأنه لم يقرأ ما يكفي عن الماضي، بجواب يطرحه كسـؤال: ومـا أهميـة ذلـك؟ ستصل دهشتك، بهذا الجواب، إلى أقصاها، وستقول بعصبية: حتى هذه؟ حـتى التاريخ تريد أن تشكك به؟ ربما سايرك قليلاً، وأجاب موضحاً بلطف: أنا لا أشكك. لدينا تاريخ هـائل، لكـنني أسـأل، مـا أهمية الحديث عن ذلك الآن؟ ما يهمنا الآن هو المستقبل، أن نخرج من هذا السـكون المخيـف الـذي يـلف حياتـنا، وننضـم إلى أولئك الذين يعملون. هذا فقط ما يضمن لنا مكاناً في المستقبل، أما الماضي، فلن يفيدنا بشيء التحسر عليه"

دق جـرس الباب قاطعاً عليه أفكاره. اتجه نحوه منزعجاً، وهو يتمتم بكلمات فحواها التأفف من معاناة المبدع من هذه المقاطعات المزعجة. كان بالباب الدكتور فايز، الذي بادره صائحاً:

— بالبـيجاما؟ الساعة الآن السابعة والربع يا أستاذ. نحن ننتظرك منذ ربع ساعة، وحضرة جنابك لا تزال بالبيجاما؟

نفض شجاع رأسه بشدة، ونظر إلى الساعة. إنها فعلاً السابعة والربع، لكنه نظر إلى فايز قائلاً:

— تنتظرونني من أجل ماذا؟ ثم من أنتم؟

رفع فايز حاجبيه بدهشة تكاد تلازمه، وصاح:

— يا حبيبي! أخونا شجاع، أين أنت؟ هل تعيش في هذا العالم، أم في...

ثم حانت منه نظرة إلى الأوراق، فقال:

— فهمت الآن. أنت تكتب. أنت إذن في ذلك العالم.

قالها مشيراً إلى الأوراق، فابتسم شجاع قائلاً:

— بالضبط. ها قد فهمتَ أخيراً، رغم ندرة حدوث ذلك. أما أنا فلم أفهم ماذا تريد؟

— يا شجاع، يا شجاع، الخالة أم علي...

خبط شجاع على جبينه، وقد تذكر الاجتماع الذي دعته إليه أم علي، وقال:

— يا إلهي. نسيت.

— نسيت؟ أريد أن أعرف فقط كم مرة في اليوم تستعمل كلمة "نسيت" هذه.

قال شجاع برجاء:

— أنا آسف يا فايز. اعتذر لهم نيابة عني. لن أستطيع...

صاح فايز وهو يجره من يده:

— لن تستطيع ماذا يا أستاذ؟ ستتركني معهم لوحدي؟ لا يمكن. ستأتي إن كنت تستطيع أو...

قاطعه شجاع متخلصاً من يده وهو يبتسم قائلاً:

— طيـب. طيـب. خـلص. سـألبس وألحـق بـك حالاً، لكنك مسؤول أمام التاريخ عن مقاطعة مبدع كبير عن عمله في رواية خالدة.

ضحك فايز ساخراً وقال بنبرة مسرحية وهو ينظر إلى الأعلى:

— لا تؤاخذني أيها التاريخ، ولتغفري لي يا آلهة الفن والأدب.

ثم نظر إلى شجاع قائلاً:

— هيا. هيا. معك خمس دقائق فقط. مفهوم؟

– حاضر يا سيدي.

-٣-

حـين جاءت نائلة بفناجين القهوة وبدأت بتوزيعها، أخذت حدة الحوار تخف تدريجياً. كانت أم علي في تلك اللحظات تصيح بعصبية:

— يـا جماعـة. إذا كنـتم لا تسـتطيعون الاتفـاق عـلى مسـألة بسـيطة كهـذه، فلتنتظروا إذن حتى يتمكـنوا في المـرة القادمـة مـن قتـلي، وبعدئـذ تجـتمعون وتقولـون: رحمها الله. ليتنا سمعنا كلامها منذ البداية.

كانت تريد الاسترسال في الحديث، لكن الدكتور فايز قاطعها قائلاً:

— تفضلوا القهوة يا جماعة.

تناول شجاع فنجانه من يد نائلة وهمس لها مبتسماً:

— سلمت يداك. جاء في وقته تماماً.

ارتشـفت أم عـلي مـن فنجانها رشفة صاخبة، وبدأت تبحث بعينيها عن شيء ما، فأخرج شجاع علبة سجائره واقترب منها يقدم إليها واحدة. نظرت إلى علبته بما يشبه القرف وقالت:

— حمراء طويلة. هل عندك حمراء طويلة؟

أجابها مبتسماً:

— لا. آسف جداً.

نادت أم علي بأعلى صوتها:

— فهمي...يا فهمي.

وعـبر بـاب الشـقة المفـتوح، انقـذف قادماً من الخارج طفل حافي القدمين يرتدي جلباباً فضفاضاً إلى حد أنه يتسع إلى اثنين آخرين من قياسه، ومثل أمام جدته:

— نعم يا جدتي.

— اذهب واجلب لي علبة دخاني سريعاً من البيت.

— حاضر.

غـادر فهمي وهو يقفز على الأرض قفزاً بمرح طفولي، ليعود خلال ثوانٍ حاملاً معه علبة سجائر الحمراء الطويلة. تناولتها منه أم علي وأشعلت سيجارة، ومجت منها نفساً عميقاً باستمتاع بالغ، وقالت:

— الله. هـذا هـو الدخـان، وليس تلك الأشياء التي تأتون بها من بلاد الأكابر ولا يعلم إلا الله ماذا وضعوا لكم فيها.

قال شجاع:

– البركة في المهربين يا خالة. لقد أغرقوا السوق بدخان جيد ومعقول الثمن. في الحقيقة الإغراء لا يقاوم.

انتفض عصام، وقال بجفاء:

– ماذا تعني يا سيد شجاع؟

– لا شيء. لا شيء. مجرد دعابة.

– لكني لا أراها دعابة مناسبة يا أستاذ.

تدخل حسان قائلاً:

– يا أخي شجاع رجل مخيف. تصوّر، أنا أخشى دائماً أن أجد نفسي، أو أن أجدك، في إحدى رواياته بشكل ساخر لاذع.

قال عصام باستنكار:

– تجدني أنا؟ وفيمَ يمكنه أن يأتي على سيرتي في رواياته؟ أنا رجل صفحته أنصع بياضاً من الثلج.

أجاب حسان:

– وأنا؟ هل يمكنه أن يتناولني في شيء؟ ومع ذلك هو لا يكف عن التلميح وتمرير عباراته الغامضة بمناسبة وبدونها. تصوّر، مرة قال أمام الجيران، وفي حضوري، إنني لا شك أتدبر أمري جيداً، وإن عملي كمحاسب في القطاع العام هو شأن عظيم.

قال شجاع الذي كان يراقب الحوار مبتسماً:

– لكنني أخبرتك يا حسان أن تلك كانت دعابة.

– يا أخي دعاباتك أصبحت ثقيلة بعض الشيء.

– لا بأس. منذ الآن سأطبق عليها ريجيماً قاسياً.

صاحت أم علي وهي تسوّي وضع غطاء رأسها:

– دعونا نرجع إلى موضوعنا يا جماعة. هه؟ هل ستدفعون؟ الباب الحديدي للبناء أصبح أمراً ضرورياً جداً، وقد رأيتم بأنفسكم. هذه المرة طارت مجوهراتي، وفي المرة القادمة لا نعرف الدور على من.

اقترب شجاع من فايز هامساً:

– عندي زجاجة فودكا ممتازة.

لمعت عينا فايز بفرح وحنين، فتابع شجاع:

– أعدك، إذا خلصتنا من هذا الجمع سنسكر عليها حتى الصباح، وعوضي على الله بالنسبة للرواية هذه الليلة.

غمزه فايز موافقاً، ثم توجه إلى الضيوف قائلاً:

– أنا من ناحيتي موافق على الدفع. لا مشكلة على الإطلاق.

قال شجاع:

– وأنا أيضاً. على عيني ورأسي خالة أم علي.

قال حسان:

– حسناً، غداً سآتي بالحداد ليأخذ القياسات ونرى كم ستكلف المسألة. ما رأيك يا سيادة العميد؟ نعرف التكاليف فقط ثم نقرر.

أجاب العميد أمجد:

– قلت لكم إنني غير موافق على الموضوع برمته. المسألة لا علاقة لها بالتكاليف، لكن الحرس عندي يمضون نهارهم صعوداً ونزولاً. تصوروا، كل دقيقة سينادون عبر الإنترفون، واركضوا لتفتحوا لهم. صعبة جداً.

قال حسان:

– والله أنا معك في أن نعطيهم مفاتيح الباب.

صاحت أم علي:

– لا. وماذا نستفيد من الباب إذن؟

صاح العميد أمجد بغضب:

– ماذا تعنين يا خالة؟

لم ترد أم علي، فهمس شجاع لفايز بنبرة ملل:

– الفودكا يا فايز. الفودكا.

قال فايز:

– حسناً يا جماعة، دعونا ننتظر قليلاً حتى نجمع بقية الجيران ونكلمهم، وأنا واثق أن العميد أمجد لن يعرقل الأمر إذا ما وافق الجميع.

كانت ملامح العميد أمجد تقول: بل سأعرقل، لكن هذا التأجيل الذي اقترحه فايز حقق أخيراً أمنية شجاع بالخلاص من هذه الجلسة التي جروه إليها جراً.

حين مضى حسان وعصام والعميد أمجد وأم علي، قال شجاع:

- هيا يا فايز. الفودكا تنتظرك.

اعترضت نائلة:

- لماذا لا تأتي بها إلى هنا يا شجاع، وأنا أحضّر لكم بعض المقبلات؟

قال فايز بابتهاج:

- فكرة رائعة يا زوجتي الحبيبة. هيا يا شجاع، اجلب قنينتك المباركة وتعال بها إلى هنا. هل رأيت يا أخي فوائد الزواج؟ من أين ستأتي الأفكار الكبيرة إن لم يكن من هذه الرؤوس الصغيرة الجميلة؟

ابتسم شجاع وقال:

- معك حق. سآتي بالفودكا ثم نتحدث بهذا الأمر.

فايز هو الجار الوحيد الذي أمكنه أن يعتبره صديقاً حقيقياً، فرغم أنه رجل تجاوز الأربعين من العمر، وطبيب ماهر، فإنه لا يتخلى أبداً عن تلك الدهشة الممتزجة بالبراءة، والتي تبدو طفولية بعض الشيء. إضافة إلى أن وجوده في البناء نفسه قد خفف عن شجاع الكثير من المتاعب. فبعد أن تحول شجاع من "الطبيب" إلى "الكاتب"، أصبح يميل لقضاء الوقت الأكبر مع الكتابة، ولولا فايز، لكان سيتم استدعاؤه من أجل كل حالة تعب أو إرهاق لأيٍّ من قاطني البناء. الآن، هم جميعاً يستنجدون بفايز من أجل مثل هذه الحالات، متحسرين في سرهم على ذلك المخبول الذي أخذ يهمل مهنة تدر ذهباً، من أجل أوراق لن يقرأها إلا بضعة مخبولين مثله. أما زوجة فايز، نائلة، فهي أفضل زوجة سبق لشجاع أن رآها في حياته، وبفضلها، بدا هذا البيت دائماً بيتاً مليئاً بالدفء والحس الشاعري المرهف، ورغم وجود الأولاد، ورغم وجود صعوبات مادية في حياتهما، فإن المرء لا يكاد يلمس وجود تأثير حقيقي لهذه الأشياء، التي اعتادت أن تتسبب بالنكد داخل الكثير من البيوت، على هذا البيت الجميل.

حين جمعتهم المائدة أخيراً حول زجاجة الفودكا وبعض المكسرات والمقبلات الخفيفة، رفع فايز كأسه ونظر إليه بشيء من الخشوع، وقال:

- إيه. سقى الله أيامك يا موسكو.

قال شجاع:

- في صحتك.

- في صحتك.

أعاد فايز كأسه، ونظر إلى شجاع نظرة عميقة مركزة، وقال:

- أيام موسكو أيام لا تنسى يا صديقي.

غمز شجاع نائلة قائلاً:

— ما هذا يا نائلة؟ أرى أن زوجك يحن للشقراوات.

ضحكت نائلة قائلة:

— وماذا أفعل؟ لن أصبغ شعري بالأشقر مهما كان الأمر.

قال فايز:

— يا أخي هل جئت لتخربها بيني وبين زوجتي بزجاجة الفودكا هذه؟ إذا كان الأمر كذلك، خذها وارحل بها.

— يا الله.

قال شجاع ذلك وهو ينهض مبتسماً ويتناول الزجاجة، فأمسكه فايز صائحاً:

— إلى أين؟ هل صدقت؟ كانت تلك مجرد دعابة.

ثم غمزه وهو يضيف:

— مثل دعاباتك.

ضحك شجاع وقال:

— تعني ثقيلة؟ يا أخي ليس هناك أثقل على القلب من الجلوس مع مثل هؤلاء البشر. معها حق الحاجة أم علي، يعجزون عن الاتفاق على أبسط الأمور. حسان يريد أن يستلم المسألة ليحصّل منها بضعة قروش كعادته، وأمجد لا يرغب بها من أجل حرسه، وتلبية متطلبات منزله التي لا تنتهي. أف. شيء ممل.

قال فايز:

— معك حق. الحمد لله أن لديّ جاراً مثلك ليخفف من هذه البلوى.

— وفوق ذلك تساهم حضرتك في جري إلى هذا الاجتماع، وبكل غباء أكافئك بزجاجة فودكا تثير لديك حنيناً وذكريات.

— يا سيدي أنا آسف. لن أعيدها والله.

ضحكوا جميعاً، وكرع فايز ما تبقى في كأسه وأخذ يصب كأساً جديداً وهو يقول:

— أية ذكريات يا أخي شجاع، أية ذكريات. موسكو مدينة لا تنسى.

ارتشف القليل من كأسه، وتابع قائلاً:

— لكنني أتحدث عن موسكو التي رأيتها أيام دراستي، لا عن موسكو المافيات والرقيق الأبيض التي نسمع عنها الآن.

– كانت تعجبك، هه؟

– كانت تعجبني؟ كانت رائعة. عظمة إمبراطورية، مع شعب يعمل بكل إخلاص من أجل الاشتراكية والمساواة الكاملة، مع درجة من الأمان لم تبلغها مدينة أخرى في العالم. تصوّر، لو أن اثنين تشاجرا في الشارع لكان ذلك خبراً تكتبه الصحف بسبب ندرة المشاكل.

غمزه شجاع معترضاً:

– إلى هذا الحد يا فايز؟

قال فايز بارتباك:

– يعني ليس إلى هذا الحد تماماً. ربما كنت أبالغ بعض الشيء، لكنني أعني أنهم كانوا يعيشون في أمان لا مثيل له.

– لكنني أنا الذي لم أدرس في موسكو مثلك ولم أعرفها، لا أعتقد أن الأمور كانت بالمثالية التي تصورها، وإلا لما هلل هؤلاء الذين تقول إنهم كانوا يعملون بإخلاص من أجل الاشتراكية، لرحيل هذه الاشتراكية.

– نعم. نعم. لا شيء مثالياً. أنا شخصياً رغم حماسي لهم، كانت تعجبني فقط ربع الأشياء، أما الأرباع الثلاثة الباقية فقد كانت تنفرني وتستفزني. لكن الوضع القائم كان قاعدة لا بأس بها للتطور نحو اشتراكية أكثر عدالة ورخاء. كان المطلوب تطوير هذه القاعدة لا تحطيمها.

أشعل شجاع سيجارة، فمد فايز يده وسحبها منه وشرع بتدخينها، فقال شجاع مبتسماً:

– ما هذا يا دكتور؟ ستخالف قواعد الطب أخيراً؟ ستبدأ في التدخين في هذا العمر؟ انتبهي يا نائلة، تدخين المراهقين ليس إلا مقدمة لأمور أخرى تعرفينها جيداً.

قال فايز متأففاً:

– عاد ليخربها. هل كلما قدمت شيئاً تقاضيت ثمنه خراباً؟ كلها سيجارة، اطمئن، أنا لن أقتل نفسي بطريقتك المجنونة. ثم من أين أتيت بحكاية أن الناس تهلل للتغيير؟ هل أصبحت تتحدث مثلهم؟

فكر شجاع قليلاً ثم قال:

– أنت تعرف أنني آخر من يمكن أن يتحدث مثلهم، وتعرف أكثر أن ذكرياتك تثير حنيني أنا أيضاً. لكنني مصرٌّ على أن الأمور كانت مليئة بالأخطاء، وإلا لما وصلت إلى هنا.

صاحت نائلة:

– ما هذا؟ لماذا قلبتما الدنيا؟ هل هي كلها سياسة؟

قال فايز بحنان صادق:

– معك حق يا حبيبتي. الذنب ذنبي. ذكرياتي هي السبب. أنا آسف.

سألها شجاع:

– لكن أنتِ، لماذا لم تجلسي معنا لبحث الموضوع الخطير، موضوع الباب الحديدي؟

– كنت سأجلس، لكن فايز قال لي إنها جلسة رجال.

التفت شجاع إلى فايز، وقال:

– جلسة رجال؟ وأم علي؟

أجاب فايز:

– إنها الوحيدة التي تثبت أن الجلسة جلسة رجال.

وفقع ضحكة عالية، أتبعها برشفة ضخمة من الفودكا.

-٤-

"قتيبة! يا قتيبة! تركتك طويلاً. آسف جداً. لكننا كنا نناقش موضوع تركيب باب حديدي للبناء. أترى كم عليَّ أن أتركك من أجل أمور تافهة؟ هذه المرة يعتبر الأمر هاماً جداً على كل حال، إذا قارنتَه بذلك اليوم الذي كنت فيه منهمكاً بروحي كلها في كتابة لحظة عاطفية مؤثرة، فاستُدرجت لأدلي بدلوي في مشاجرة كبرى بين أم علي والرجل الذي يغسل سلالم البناء. كان على ما يبدو قد بللها بالقليل من الماء، فانفجرت في وجهه، معلنة رفضها أن تدفع له بعد الآن"

"أترى يا قتيبة كم نحن، أهل الواقع، أناس قساة؟ هذا الرجل المسكين كانت أم علي تدفع له عشر ليرات أسبوعياً. لم توافق أبداً على الزيادة التي كنا قد قررناها له ليتقاضى من كل منزل خمس عشرة ليرة، وبقيت على الأجرة القديمة، لكنها سيدة عجوز وتستطيع أن تبحث لها عن مبررات في كبر سنها، أما حسان، فماذا تقول في اقتراحه العبقري في ذلك الوقت؟ أتعرف ماذا اقترح؟ قال إن علينا أن ندفع الفارق الذي قصّرت عن دفعه أم علي، بشرط أن...نتقاسمه"

ضحك شجاع وحيداً وهو يتذكر تلك الحادثة، وارتشف القليل من الفودكا، وأشعل سيجارة.

"أما أنت فهنيئاً لك حياتك في باطن أوراقي. على الأقل لم تسمع لهاث هذا الرجل المسكين كما سمعتُه، حين كنت أصعد السلالم خلفه تماماً في إحدى المرات بعد أن أنهى عمله. لهاث يمزق القلب. لكن هل كان قلبك ليتمزق؟ أنت، اسمح لي، رجل بارد الأحاسيس. ترى ماذا كنت ستقول في أمر كهذا؟ طبعاً لا أعني هذا الرجل تحديداً، ولكن ماذا كنت لتقول لو عبَّر أحدهم أمامك عن استنكاره للفوارق الطبقية القاسية في المجتمع؟ أو دعك قليلاً الآن من المجتمع، فهل كانت عيناك ستدمعان، كما دمعت أعين الكثيرين، حين ظهرت على التلفزيون بالأمس صورة طفل من السودان؟ هل سمعت بالسودان يا قتيبة؟ بلد خير وفير. رغم ذلك، كانت عظام الطفل الذي عرضوه علينا بالأمس، ناتئة من الجوع، ولا أعتقد أنه لا يزال على قيد الحياة إلى الآن، والمضحك أنهم عرضوا بعد هذه الصورة المأسوية مباشرة، أغنية لأطفال يطالبون فيها بالعيش بأمان. لم تكن هناك عند أحد، بالتأكيد، نوايا ساخرة، لا من المشرفين على برامج التلفزيون، ولا من الأطفال الذين يرتدون ملابس جميلة غالية، لكن الأمر بجملته بدا رغم ذلك مثيراً للسخرية، فذلك الطفل العاري، لم يبقَ عنده صوت ليطالب بالعيش نفسه، فما بالك بالأمان؟ هذا اختبار حقيقي لك. ماذا كنت لتقول في أمر كهذا؟"

"اسمع. سأفكر عنك. ألستُ خالقك؟ لكن اطمئن. انا سأحترم خياراتك الخاصة. فهمت ماذا أعني؟ أنا حددت لك من أنت، لكنك، بالصفات التي حددتها لك، عليك أن تقرر خياراتك حيال كل أمر على حدة. بالنسبة لهذا مثلاً، وبما أنني وصفتك منذ البداية بأنك إنسان مخلص، رغم طباعك العقلية

الباردة التي لا تطاق، فإنك على الأرجح لن تسخر من مشاعر من هذا النوع. عيناك لن تدمعا بالتأكيد، وهذا في الحقيقة أمر مؤسف، فالإنسان يا عزيزي، إن لم يبكِ تجاه ما يستحق الدموع، فلن يعرف كيف يضحك حيث ينبت الفرح. ثم إنك بذلك لن تكون عربياً نموذجياً! فالعربي يا صديقي يكاد لا يستحق صفته هذه من دون آلامه وأحزانه ودموعه. نسيت أن أقول ذلك لنها حين كانت تناقشني في الصباح حول حزن الكتّاب. نسيت أن أخبرها أنه جزء من كل، وليس خاصاً بالكتّاب وحدهم"

"هل قسوت عليك؟ لا أعتقد. أساساً هذه الأمور لا علاقة لها، بالنسبة لي، بتقييم الإنسان. هذه طباعك وأنت حر فيها. لو نهضتَ الآن من الورق، وتجسدت أمامي، لما أمكنني أن أتخذك صديقاً، لكنني مع ذلك، لن أملك إلا أن أُعجب بالكثير من خصالك، مع قليل من الرثاء لحالك لأنك لا تعرف الفرح الحقيقي ولا الحزن الحقيقي"

"خرجت عن الموضوع. كنت أقول إن عينيك لن تدمعا لمرأى مثل هذا الطفل، أو ما يشبه هذا الوضع، ولكنك ستتعاطف معه بشكل من الأشكال. تتعاطف؟! لا. لا. أنت لا علاقة لك بالعواطف. ربما "تتعاقل" معه! ها قد اخترعت كلمة جديدة من أجلك. تتعاقل معه. كنت ستعبّر عن ذلك، مثلاً، بتحليل عن القوة والضعف، أو عن العلم والجهل، لتؤكد ما تمضي عمرك وأنت تؤكده، أننا بالعلم فقط ننهض، وبالعلم فقط نمنع وجود مثل هذه الظواهر في مجتمعنا. حسناً، اسمح لي أن أختلف معك. يجب أن تدخل في اعتبارك بعض المؤثرات الأخرى، غير العلم. القلب مثلاً. العاطفة الإنسانية مثلاً. الأخلاق...هل لديك تعريف للأخلاق يا قتيبة؟ بالنسبة لي، أربطها بالعاطفة الإنسانية وليس بالعقل، فالعقل الذي أنتج كل هذه العلوم، هو نفسه الذي استثمر هذه العلوم في مسخ الإنسان وتجويعه والحط من كرامته. تعترض؟ إذن أنت فهمتَ أنني ضد العلم. لا يا صديقي، وهل يُعقل أن يقف رجل مثلي ضد التقدم؟ لكنني أريد العلم موازياً للشعور الإنساني، أو حتى خاضعاً له. نعم. بدون ذلك، أنت تترك قدرات هائلة في أيدي أناس لا يقيمون وزناً لأي اعتبار إنساني، وتحصل بالتالي على هذه الظواهر المحزنة، مكررة إلى ما لا نهاية. لو امتلكنا نحن ناصية العلم يا قتيبة، لربما أنقذنا أنفسنا من أن نرى الجوع في بلادنا، لكننا، إن مارسنا سيطرتنا هذه بعقل بارد، لكنا تسببنا بالجوع في ديار الآخرين. القيم يا قتيبة. لا تنسَ القيم. على الأمة أن تمتلك القيم والمثل لكي تنشئ حضارة إنسانية رفيعة وعادلة. ولكن مالي أتدخل بآرائك؟ أنت حر. أنت تقول العلم ثم العلم ثم العلم. هذه عقيدتك وأنا لن أتدخل فيها. كنت فقط أحاورك قليلاً"

"إذن ها قد توصلنا إلى توصيف مبدئي لشخصك الكريم. أنت شاب في مقتبل العمر، أو ربما بدأتُ رحلتي معك في الرواية بعد أن تعود بشهادة الدكتوراه من الخارج، أي أنك في نحو الثلاثين من عمرك.

لقد بدأت لتوك بالعمل في مركز علمي ما، وها أنت تمارس حياتك وفقاً لقناعاتك الأساسية: أنت ملتزم ببلدك وتسعى لتطوره، وأنت في الوقت نفسه رجل علمي لا يقيم وزناً كبيراً للعواطف أو لمعانٍ مثل الفرح والحزن، وأنت مفتتن بحضارة الغرب، لكنك مخلص في إرادتك بأن ترى مثلها في وطنك، وأنت رجل لا يلتفت للماضي، بل يركز كل اهتمامه على المستقبل. لم أحدد بعد إذا كنت من أسرة غنية أم فقيرة، كما لم أصف شكلك الخارجي. دعنا نقل إنك من أسرة متوسطة أو فقيرة، لأنك لو كنت من أسرة غنية، فإنك على الأرجح لن تستطيع أن تمتلك هذه المواصفات كلها: المهارة العلمية المتميزة، والإيمان الشديد بالعلم، مع وضع كل ذلك في خدمة البلد الذي أنجبك. كان يمكنك، بصعوبة، أن تمتلك واحدة أو اثنتين من هذه المواصفات، أما الثلاثة معاً، فهذا صعب للغاية. هل تقول إنني رجل يفسر الأمور من منظار طبقي؟ حسناً، لن أعترض. أنا لست حاداً في هذا الأمر، لكنني مقتنع بأن الطبقة التي يولد فيها المرء لها تأثير كبير عليه، وأن خروجه على طباعها وقيمها هو من قبيل الاستثناء قليل الاحتمال، أما بالصفات التي اخترتها لك، فهذا يصبح من قبيل الاستثناء النادر. ذكّرتني. في إحدى المرات، منذ سنة تقريباً، قال أحد الكتّاب في مقابلة إذاعية الجملة التالية: أنا أعتقد أن الطبقة الغنية هي الطبقة الأكثر وطنية في البلدان الغنية، والأقل وطنية في البلدان الفقيرة. يا إلهي يا قتيبة. قامت الدنيا ولم تقعد. تعرض هذا الكاتب لهجوم شرس بدعوى أنه شكّك بوطنية الطبقة الغنية عندنا، وكان هذا أول اعتراف علني أسمعه بأن بلادنا فقيرة. في الحقيقة،أنا لا أؤيده تماماً على هذا الكلام. وجدته قاسياً. الرجل حر في أن يكون هذا رأيه أو لا يكون، أما أن يعلنه في الإذاعة، فهذا أمر غير مقبول. يجب على المرء أن يكون دبلوماسياً ومرناً في بعض الأحيان"

"إذن أنت من أسرة متوسطة أو فقيرة، أما شكلك الخارجي فهو لا يهمني على الإطلاق في الوقت الحاضر. دعنا نؤجل ذلك إلى وقت لاحق، ونركز الآن على التناقض بينك وبين دمشق. أريد أن أضعك يا قتيبة في مواجهة دمشق. لا أعني الصدام، بل أعني الاختلاف الفكري بين نقيضين شديدي التناقض. فأنت في الحقيقة لا تشبه دمشق، ولا بد أن يطرح عليك هذا الاختلاف بعض القضايا الشائكة، وربما وجدتَ نفسك في بعض اللحظات مضطراً لاتخاذ قرارات صعبة للغاية. لا تقلق، سأجد لك معضلات تضعك في هذا الموقع لاحقاً، لكن دعني أولاً أخبرك فيمَ التناقض بينك وبين دمشق"

"أنت رجل علمي لا تقيم وزناً للعواطف، في مدينة تحيا بقلبها لا بعقلها. هل تعلم يا قتيبة أن دمشق تنبض؟ نعم تنبض، وكأنها كلها عبارة عن قلب كبير جداً. لا تسخر، أنا أصلاً لا أقصد المديح. أنا الآن أصف فقط. دمشق يا سيدي مدينة عاطفية إلى أبعد الحدود، وإذا كنت تريد دليلاً على ذلك، فدعني أخبرك أن دمشق تنتج المتوسط السنوي الأعلى قياساً إلى عدد السكان من ...الدموع. هل ظننت

أنـني أعـني أنهـا مدينة حزينة؟ أبداً، لكنها تدمع للحزن والفرح، ولأشياء لا علاقة لها بالحزن والفرح أحيانـاً. طـبعاً لسـتُ واثقاً من أنها تنتج المتوسط الأعلى على مستوى العالم، لكنها دون شك في المقدمة. وإذا تركـنا موضـوع الدمـوع، فـإن دمشـق تهب أو تمنع حنوها ومحبتها بطريقة شديدة الوضوح. فحب دمشـق لك سينعكس بوضوح على وجوه الناس الذين تلقاهم، كما ينعكس في رحابة الفسحة التي تقدمها لـك. دعـني أشـطح قـليلاً لأقول إن أشجارها نفسها تميل عليك مظللة إياك من شمسها اللاهبة. أما إذا رفضـتك دمشـق، فـأنت ستكتشـف ذلـك بسـهولة شديدة، إذ ستجد ناسها واجمين، وشمسها حارقة، وغبارها كثيف"

"أنـت تسخر في سرك الآن وتقول إنني، وبسبب كوني رجلاً مسكوناً بالعاطفة، فقد منحت دمشق روحاً وشخصـية إنسـانيتين. لـن أنكر، ولن أدافع عن نفسي، فأنا يمكنني أن أسرد لك ألف حكاية أو مشهد مـن تـلك الـتي أكرهها في دمشق، لكن كل ذلك لن ينفي حقيقة عشقي لهذه المدينة عشقاً يجعل مجرد فكرة العيش خارجها، كابوساً لا يطاق بالنسبة لي"

"ثـم إنك رجل تنتمي بكل كيانك إلى المستقبل، بينما دمشق مدينة تلبس أردية التاريخ بزهو، ولا يخطر لهـا أن تتخـلص منها في يوم من الأيام. إنها تفخر بوصف نفسها بأنها العاصمة الأقدم في العالم، وتزهو بـأحداث وتواريـخ جعـلت مـنها في قـلب العـالم في يـوم مـن الأيام، وإذا كان لديك شك في ذلك، قلّب صـحفها واسمـع إذاعـتها وراقـب تـلفزيونها. إنها تكرر وصف نفسها بأنها مدينة التاريخ مرات متعددة كـل يوم. مرة أخرى أؤكد لك: أنا بهذا الكلام لا أمدح ولا أذم. أنا أصف فقط. ودعني أخبرك أنني من الـناحية الشخصـية، لا أميـل كثيراً إلى هذه الطريقة في الانكفاء إلى الماضي. أنا أماثلك تقريباً في انتمائي للمسـتقبل، ويـزعجني في أحيـان كـثيرة، تمسـك مديـنتي بالكـثير مـن مخلّفات الماضي، لكنه الواقع، وعـليك أن تعـرف أن هـذه تمـثل نقطـة صـدام أخـرى بينك وبين المدينة، خاصة أنك متطرف من هذه الناحية، إلى حد أنك تبدي التذمر الدائم حتى من اسمك، الذي يذكرّك دوماً بالقدم والتاريخ"

"بعـد ذلـك، أنـت رجل منبهر بحضارة الغرب وتقنياته وعلومه، أما دمشق، فإنها تتعامل مع كل ذلك عـلى مهـل. إنهـا تـبدو وكأنهـا ليسـت عـلى عجـلة مـن أمرها. طبعاً هي لا تأخذ موقفاً رافضاً من تلك الأشـياء، لكـنها تتشـربها بـبطء شديد، وتستقبل منتجاتها الجديدة بحذر في بادئ الأمر، وإن كانت في الـنهاية ستفرد لها مكاناً في حياتها. من ناحية أخرى، هي لا تفتأ تؤكد التزامها بتلك الحضارة العتيقة الـتي كانت ذات يوم منها في موقع القلب، وبذلك، هي تحتفظ لنفسها بحق استقبال منتجات الحضارة الحديـثة بـبطء، دون أن تـتجرع روح هـذه الحضـارة، بـل يمكن القول إن روح هذه الحضارة لا تحظى بالكثير من الاحترام هنا"

تـثاءب شجاع، ونظر إلى الساعة. كانت قد جاوزت الثانية صباحاً. لقد سجل حتى الآن عدداً جيداً من الملاحظـات الوصـفية حـول شخصـية بطلـه، وبـدأ يـتعايش معه ككائن من لحم ودم تقريباً. قال لنفسه أخيراً:

"لـن أستعجل بدء الكتابة عنك يا قتيبة. يجب أن أفهمك جيداً في البداية، وعليَّ أن أعيش معك بضعة أيـام، بـل إنـني سـأطرح عليك بعض الأسئلة التي ستواجهني خلال هذه الأيام. بهذه الطريقة، سنفهم بعضنا بشكل أفضل. الآن، اعذرني. لقد نعست"

أطـل بعيـنيه، مـن خـلال النافذة الزجاجية العريضة، على تلك الشرفة. كانت معتمة. في تلك الأيام لم تكـن تظـلم في مـثل هـذا الوقـت. كـانت نجـوى تظـل هناك، ساهرة إلى وقت متأخر من الليل في معظم الأيام. تنهد، وابتسم، وقال:

— سـتعجبك هـذه الـرواية يـا نجـوى. سأسكب فيها كل ما في روحي من عاطفة نحو المدينة التي عشتِ فيها عدة سنوات فيما مضى.

ثـم اسـتدار مـتجهاً إلى الطاولـة، وأخذ يلملم أوراقه وكل ما بعثره هنا وهناك، والتفت ثانية عبر النافذة إلى تلك الشرفة، وقال:

— تصبحين على خير يا نجوى.

-٥-

حين رن جرس الهاتف، استأذن شجاع ضيفيه قائلاً:

- عن إذنكما.

ونهض ليرد على التلفون. كان الصوت جديداً تماماً عليه، وقد عرّفه بنفسه قائلاً:

- أنا أكلّمك نيابة عن دار السعادة للنشر.

- أهلاً وسهلاً.

- أستاذ شجاع، لقد قمنا بالإعلان عن مسابقة للرواية للأدباء الشبان، ونرغب في أن تكون عضواً في لجنة التحكيم. ما رأيك؟

رد شجاع بدهشة:

- أنا؟

- نعم. وفيمَ الغرابة؟

- أنا يا أستاذ بالكاد بدأت حياتي الأدبية، أي أنني واحد من أولئك الأدباء الشبان الذين عليهم أن يتقدموا للمسابقات، لا أن يحكّموا فيها. أنا لم أصدر سوى رواية واحدة حتى الآن.

- نحن نعلم ذلك بطبيعة الحال أستاذ شجاع، لكن روايتك الأولى تشكّل بداية ممتازة، ونحن نريد لجنة تحكيم من أجيال متعددة.

فكر شجاع قليلاً، ثم قال:

- حسناً. لا أعتقد أن ثمة مانعاً. المهم أن تصلني النصوص في وقت مناسب لي، وأن أُمنح الوقت الكافي لقراءتها.

- جيد جداً. يمكننا أن نبحث هذه التفاصيل إذا تكرّمت بزيارتنا.

اتفقا على الزيارة في اليوم التالي، وعاد شجاع إلى ضيفيه المفاجئين: الدكتورة سوسن، شقيقته الوحيدة التي تكبره بسنة، والدكتور أنور، زوجها، وبادرهما قائلاً:

- هه؟ إلى أين وصلتما؟

قالت سوسن بانفعال مضبوط:

- لم نصل إلى أي مكان. يبدو أن إقناع الدكتور أصعب من نحت الصخر.

قال أنور بهدوء:

- دكتورة سوسن، أنت تعرفين أنني لست كذلك، لكن ما تطلبينه صعب جداً.

"دكتور؟! دكتورة؟! فليكن الله في عونكما على هذه الحياة المملة"

لطالما فكر شجاع بذلك وهو يراقب بيت الزوجية الذي يضم هذين الأستاذين الجامعيين في قسم الفلسفة في جامعة دمشق، والذين يعيشان حياة تكاد تكون أكاديمية إلى حد يشعر تجاهه بالشفقة. كانت شقيقته قريبة وصديقة له على الدوام، لكنه لم ينسجم يوماً مع أسلوب تفكيرها، فسوسن لا تشغلها قضية سوى حرية المرأة واستقلالها التامين، وإذا كانت لا تفعل شيئاً في الواقع من أجل هذه القضية، فهي لم تنضم أبداً إلى أي من تلك المنظمات التي تعنى بهذه القضية، إلا أنها تمارس إيمانها بهذا المبدأ من خلال حياتها وتصرفاتها، ولا يعلم إلا الله من الذي أدخل في دماغها أن هذه الممارسة تتطلب تقليد الرجل إلى أبعد حد ممكن، وهكذا أصبح من النادر أن تُشاهد وقد زينت وجهها أو ارتدت أقراطاً أو حتى فساتين، كما أنه من المستحيل أن يدعي كائن ما أنه رأى يوماً دموعاً في عينيها، باستثناء يوم وفاة أبيها قبل نحو أربع سنوات، فهذا رجل لم يكن بإمكانها إلا أن تبكيه، رجل كان مؤمناً بالحرية ولم يخشَ من تطبيق إيمانه هذا في بيته نفسه في الوقت الذي يحجم الكثيرون فيه عن فعل ذلك عندما تتعلق الأمور بأقرب المقربين إليهم، وقد طبّق ذلك دوماً وبكل إخلاص، فلم يمانع حين قررت سوسن دراسة الفلسفة، رغم أنها أحرزت في الثانوية العامة درجات تؤهلها لدراسة ما يمكن أن يراه أب أهم وأفضل بكثير لمستقبل ابنته، ولم يمانع في سفرها لمتابعة الدراسة حين حصلت على منحة بعد تخرجها، وأجاب بشكل إيجابي دوماً على رسائلها التي كانت ترد من فرنسا والتي بدأت تتحدث عن زميل لها يدرس اختصاصها نفسه قد بدأ يجذب اهتمامها، وحين بدأت الرسائل تتحدث بحميمية أكثر، لم يبدِ أي اعتراض، وهكذا عادت سوسن برفقة أنور وقد حصل كلاهما على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، وتزوجا على الفور دون أية عراقيل أو عقبات من أي نوع.

والمرء لا بد أن يشعر بالشفقة على الدكتور أنور، ففي الوقت الذي رزق الله فيه معظم الرجال زوجات يشعرن بالاعتزاز بالانتماء إلى جنس النساء، أو أنهن يقبلن الأمر على مضض على أية حال، فقد رزقه هو دون غيره بزوجة لا تريد أن تشبه أيةً من بنات جنسها بشيء، إلا أن المرء نفسه سيحتفظ بشعوره المشفق هذا لنفسه حين يراقب أنور، ويرى كم يحب زوجته ويعتز بها، فهو الآخر ليس بعيداً عن القيم التي تدفع زوجته لهذا السلوك، ولا يبدي أي انزعاج من مظهرهما الخارجي الذي يعطي انطباعاً عن كائنين متساويين في القيمة تماماً، إن لم تفقه أحياناً، الأمر الذي لا يطيقه الرجل الشرقي في المعتاد.

وهكذا سارت حياتهما نحو شكلها الحالي: تقسيم دقيق وعادل زيادة عن اللزوم للأعمال المنزلية، تقسيم واضح للأمور المالية يجعل هناك مقتنيات خاصة بها وأخرى خاصة به، امتناع عن إنجاب الأطفال حتى تتفرغ سوسن لتحقيق مكانتها الجامعية، وبذلك لم يحصلا على طفلهما الأول إلا في السنة

الماضية، حين بلغت سوسن السادسة والثلاثين من عمرها، وتحت شروط حاسمة بأنه الطفل الأول والأخير، وأخيراً، طريقة تخاطب يومي أكاديمية تماماً لا تكاد الألقاب العلمية تسقط منها إلا سهواً.

كان شجاع يحب شقيقته بطبيعة الحال، لكن هذا لم يمنعه من أن يقول إنها شقيقة ممتازة ولكنها زوجة لا تطاق، لكنه كان متأكداً من عدالة الموقف ما دامت زوجة لا تطاق لزوج لا يطاق. كان يماحكها وزوجها كثيراً، كأن يزورهما مثلاً وهو يرتدي ثياباً رسمية كاملة لا يطيق ارتداءها في الأحوال العادية، ويعلّق على صدره بطاقته، ويبادر إلى التعريف عن نفسه وصفته المهنية عندما يُفتح له الباب تأكيداً على جدية الموقف وحرمة المكان العلمي الذي يدخله، أو بأن يعد الأطباق التي حملها كل منهما إلى طاولة الطعام لضمان المساواة التامة، وغير ذلك مما كان بالكاد يثير ابتسامة صغيرة مع قدر كبير من التحفظ عند كلٍّ منهما.

لكنه احتفظ لنفسه بخاطر ساخر واحد لم يجرؤ على قوله علناً وإلا لأحدث ارتجاجاً في منظومة القيم الفكرية والفلسفية التي تسود حياتهما. كان يفكر ساخراً:

"هذان المخلوقان، كيف يمارسان الجنس؟ هل يداعبها؟ هل تتأوه؟ أتراه يقول لها يا حبيبتي الدكتورة، فترد عليه يا روحي يا دكتور؟!"

المهم، سارت الأمور بهذه الطريقة دون أن يسمع إنسان ما في يوم من الأيام بخلاف وقع بين الدكتورين، وعلامَ يختلفان ما داما على هذه الدرجة من الانسجام؟ لا شك أن أكبر خلاف يمكن أن يدور بينهما هو حول تقدير كل منهما لأهمية وتأثير نيتشة في الفكر المعاصر! وهذه قضية كانا يختلفان عليها فعلاً، لكن درجة السلام التي تسود بيتهما نادرة المثال في مجتمع دمشق الراهن.

وهكذا، حين جاءا إليه اليوم متجهمين، وأرادا أخذ رأيه في خلاف وقع بينهما، هتف في سره:

"أخيراً؟ لماذا لم تفعلاها من زمان لنشعر قليلاً أنكما زوجان كباقي مخلوقات الله؟"

وسر الخلاف كان يتعلق بظهور أول مؤشر من مؤشرات العواطف الإنسانية الطبيعية عند أحدهما، ومن؟ أنور، نعم أنور وليست سوسن التي ارتكبت هذه الخطيئة الكبرى.

فلأول مرة هذه السنة، كانت العروض الدائمة التي تعلنها جامعات الخليج حول حاجتها لمدرسين جامعيين، تنطبق عليهما من حيث عدد سنوات الخبرة التعليمية المطلوبة، وسوسن، التي ملت إلى أبعد حدود الملل من الشقة المتواضعة التي يقيمان فيها، ومن الدخل الذي يكفيهما بصعوبة، قررت أن الفرج قد جاء أخيراً.

وهنا ظهرت صفة لم تكن معروفة على الإطلاق عند أنور. فقد أعلن على غير توقع أنه متعلق بدمشق ولا يستطيع مغادرتها، وإذا كان قد فعلها مرة من أجل العلم، فهو لن يفعلها أبداً من أجل المال. أعلن ذلك دون خجل ودون وازع من ضمير!

طبعاً قصة الخجل والضمير هذه هي رأي سوسن في الموضوع، وإن لم تعلنه بهذه الحدة انسجاماً مع تقاليد الحوار الفلسفي، لكنها ردت باتهامه بأن الأمر ليس كذلك، بل إنه في الحقيقة لا يريد أن يبتعد عن والدته التي شاخت كثيراً في الآونة الأخيرة ويخشى أن يصيبها مكروه في غيابه.

حصل ذلك بينهما في منزلهما، وعلا صوتهما فيه للمرة الأولى في عمر هذا الزواج، وكانت فرصة لتكتشف سوسن فجأة أن زوجها رجل تقليدي يمكن أن يتأثر بالعواطف، وليكتشف أنور أن سوسن زوجة تقليدية لا بد أن تحيل سبب كل مشكلة إلى حماتها.

أما حين أصبحا عند شجاع، فقد ضبطا كلامهما أكثر، ليصبح نقاشاً حول أوضاع الطبقة الوسطى التي يُسحب البساط من تحتها شيئاً فشيئاً لتهوي إلى الأسفل، وحول بعض الأذكياء الذين لا بد أن ينجوا من هذا المخطط ويطيروا بدلاً من ذلك إلى الأعلى، ليأتي رد أنور بأن الكفاح في مواجهة ذلك لا بد أن يتم هنا، على أرضنا التي نعرف كيف نتحرك عليها، ومن خلال الدور التثقيفي الهام الذي يقومان به من موقعهما الجامعي.

كانت القضية معقدة بالفعل، وكانا يريدان رأيه، وقد دهشت سوسن أيما دهشة حين وجدت أن شجاع قد اتخذ صف صهره ووافق على موقفه، لكنها لم تعدم الوسيلة، فاتهمت أخاها بأنه حكم غير صالح لحل مشكلة كهذه لأنه رجل مسكون بالعواطف، وأنه بالتالي لا بد أن يقدّر الجانب العاطفي من المسألة ويتغاضى عن الجانب الموضوعي.

لكن المشكلة تعقدت أكثر حين صاحت سوسن فجأة وكأنها وجدت الحل:

— حسناً. أسافر وحدي.

عندها، فغر أنور فاه وهو ينظر إليها لثوانٍ، ثم غرق في الضحك. كانت تلك أعلى ضحكة يسمعها منه شجاع منذ تعرفه إليه، ففكر:

"مشكلة! تحولات عاطفية وضحك في يوم واحد. لا شك أن الدكتور تغير كثيراً"

أما سوسن فقد نظرت إلى زوجها نظرة قاسية وهي تقول:

— هل قلت ما يُضحك؟

توقف أنور عن الضحك وقال:

— طبعاً. كيف تسافرين وحدك؟ وأنا؟ وابننا؟ كيف؟

– ابـني أمـر أتدبـره بنفسـي عـندما يحـين موعـد السـفر، أمـا أنـت فماذا تريد؟ أن تقف في وجه طموحي وتطلعاتي ثم تسألني بكل بساطة: وأنا؟

تجهم أنور تماماً، وصمت للحظات طويلة قبل أن يرد:

– أنـا لا أقف في وجه طموحاتك، لكننا الآن زوجان ولدينا طفل عمره سنة، إما أن نتحرك معاً أو أن نبقى في مكاننا معاً.

وهكـذا بـدا أن "تقـريب وجهـات النظر" بين الطرفين هو المستحيل بعينه، فكان لا بد أن يقترح شجاع حـلاً مناسـباً تمامـاً للعقـلية الأكاديميـة الـتي يتصـرفان على أساسها، وهو أن يفكر كل منهما بالموضوع جيـداً، مـع الأخذ بعين الاعتبار "الدوافع الذاتية والموضوعية للطرف الآخر"، ثم يتناقشان بالأمر بروية علهما يصلان إلى حل يوافقان عليه معاً.

-٦-

بعد أن غادراه بنحو الساعتين، جاءت عفاف. حين دق الباب، عرف فوراً أنها هي، فلدقاتها دوماً، إيقاع خاص كأنما هو زغرودة ابتهاج ماجنة بعض الشيء. هتف بها مرحباً:

- عفاف! أين أنتِ؟

دخلت كالعاصفة وهي تصيح:

- وما دمت تريدني لماذا لا تسأل عني؟ هل تحتاج من يدلك على طريقي؟ طريقي معروف إلى درجة أن الذين يسلكونه أكثر بكثير مما أرغب.

ابتسم، وأغلق الباب ولحق بصيحاتها التي كانت تصله الآن من المطبخ. كانت تتفقد الخزائن باحثة عن شيء ما، فقال لها:

- ماذا؟ هل تريدين شيئاً؟

التفتت إليه صائحة:

- طبعاً أريد. عرق عرق عرق. ما هذا؟ لماذا لا تدلل نفسك ببعض الويسكي؟

قال مبتسماً:

- يوجد. إنه هناك في الخزانة التالية.

فتحت الخزانة، وجاءت بالزجاجة وأخذت تصب كأساً لنفسها وهي تقول:

- أصب لك كأساً؟

- لا. سبقتك. كأسي تنتظرني في الصالة.

- ماذا؟

- عرق.

- ألم أقل لك؟ أنت منذور للفقر.

توجهت نحو الصالة، وألقت نظرة. كان لا بد من تلك النظرة وتلك التعليقات التي تليها في كل مرة تزوره فيها. ففي منزل شجاع فارس، يجد المرء دوماً شيئاً من الفوضى، لكنه في مكان أو آخر، يجد أيضاً الكثير من الجمال.

كان قد صمم منزله بطريقة أنيقة مرهفة. كان ثمة ركن عزيز فضله دوماً على كل ما عداه. فهناك، يوجد كرسيان شاعريان ينتصبان متقابلين في دعوة ضمنية إلى لقاء حب، بينهما طاولة صغيرة أنيقة تتسع لكأسين وبعض اللوازم الضرورية الأخرى، وقبالتهما تقوم تلك النافذة الزجاجية العريضة التي لا تطل في الصباح إلا على الضجيج، أما بعد أن يهبط الليل، فإنها تعرض في مهرجان احتفالي أضواء

دمشق الفاتنة، لكنها صباحاً ومساءً وفي جميع الأوقات، تنقل إلى مخيلته صورة نجوى، حين كانت تملأ بحيويتها فضاء تلك الشرفة.

في الصالة أيضاً، ثمة لوحات موزعة هنا وهناك كانت عفاف تقف كثيراً قبالة بعضها وتصيح:

— ما هذا؟ كيف تفهم منها شيئاً؟ تعال. تعال وأفهمني. لا شك أنك ستقول لي إن هذا الخط يرمز إلى الحياة وذلك اللون إلى التمرد، أو ما يشبه ذلك. لا. لا تشرح شيئاً. لا أريد أن أفهم فذلكاتكم أنتم المثقفين.

أما المكتبة الكبيرة فهي في غرفة النوم، حيث يوجد أيضاً سرير عريض وكأنه يتوقع دوماً ضيفاً يشاركه فيه، وطاولة وكرسي للكتابة، وصور متعددة غطت الجدران خلال فترات متفرقة، فأتت متنافرة وغير منسجمة لا في الشكل ولا في المضمون. فمن ناحية الشكل، أتى بعضها ملوناً والبعض الآخر بالأسود والأبيض، إضافة إلى الفروق في الحجم والجودة، أما من ناحية المضمون، فلا شك أنها الغرفة الوحيدة في التاريخ البشري التي تصالح فيها لينين وغيفارا، مع عبد الناصر، ومع المسيح، وتمكنوا جميعاً أن يقيموا في وئام تام مع مجموعة من عارضات الأزياء وملكات الجمال والممثلات، اللواتي تظهر الصور من أجسادهن الجميلة النضرة أكثر مما تخفي.

وسط هذا كله، لا يكتمل المشهد إذا لم نضف إليه كتب شجاع وأوراقه المتناثرة في كل مكان من الشقة، وأعقاب سجائره، وفناجين قهوته، وكؤوسه.

لكنه، كوفيٍ لإيمانه بالجمال، كان لا بد أن يتخلص في كل ليلة، وقبل أن يخلد إلى النوم، من هذه الفوضى كلها، بحيث يبدو بيته في الصباح مثالاً للترتيب والنظام، وحين أشار صديقه خالد مرة إلى الفوضى التي تظل قائمة رغم ذلك، ممثلة بالصور المتنافرة في غرفة النوم، رد شجاع بثقة:

— لا. هذه ليست فوضى. إنها تعبير تاريخي عن فترات متنوعة في حياتي. ثم ما المشكلة؟ هذه محاولة للصلح بين الثورة والجمال والعروبة والقيم النبيلة للدين.

سأله خالد في حينها بما يشبه السخرية:

— وأيها الأهم في رأيك؟

رد، بنفس الثقة:

— كلها. لا يمكن أن أفرّق كثيراً. أحتاج إلى الثورة والأخلاق، وأؤمن بالعروبة، لكنني لا أستطيع أن أكون هذا كله إن لم أتنفس الجمال بمساماتي كلها.

وكانت هذه فلسفته منذ زمن بعيد، أي منذ غادر الطفولة متأخراً، ورحلت عنه نجوى.

جاءت عفاف بكأسها إلى الصالة، وأخذت تصيح:

— ما هذه الفوضى؟ كيف تعيش وسط هذا كله؟

ابتسم وقال:

— ألفان وأربعمئة وثلاثة وعشرون.

نظرت إليه باستغراب وقالت:

— ما هذا؟

— عدد المرات التي قلتِ فيها هذا الكلام.

ابتسمت، واتخذت مكانها على أحد كرسيي ركن الحب، فحمل كأسه ولحق بها. شربا، وتبادلا بضع نكات ماجنة، ثم مارسا الجنس، ومضت.

كان قد عرفها قبل نحو أربع سنوات في لقاء غريب جداً. حصل ذلك في ليلة غمرت فيها الكآبة روحه، حين اكتشف أخيراً أنه قد فقد نجوى لضعفه، لعدم استحقاقه إياها، وليس لأنها خدعته كما كان يعتقد قبل ذلك. ليلتها، قاده صديقه الرائع خالد، إلى ملهى يعرفه جيداً ليسري عنه، وهناك، حصل عليها في آخر الليل، وانفردا أخيراً في شقة يمتلكها أهل خالد كانت فارغة في ذلك الحين. حين دخلا قال لها:

— اجلسي حيث تشائين وسأعود حالاً.

ذهب إلى المطبخ وصبَّ كأسين من الويسكي وعاد بهما، فقالت عفاف:

— ستشرب المزيد؟

— أجل. وأنتِ أيضاً.

— لكنك شربت كثيراً.

ابتسم بغباء وقال :

— كنتِ تراقبينني طيلة السهرة إذن؟

— لا، لكن هذا واضح عليك.

انقلبت سحنته إلى حزن طفولي وعاوده الاكتئاب والكدر.

شرب نصف كأسه دفعة واحدة ثم خلع نصف ملابسه ورماها بإهمال وجلس على الكنبة بجوارها.

كانت ترتدي تنورة قصيرة جداً فمدَّ يديه يداعب ساقيها المكشوفتين بفظاظة وهو يسألها:

— ما اسمك؟

— عفاف.

نظر إليها ببلاهة ثم انفجر بضحك هستيري وهو يقول :

– عفاف؟ اسم على مسمى والله.

امتقع لونها وهي تراقبه، فتابع قائلاً:

– لا تحزني يا صغيرتي. بعد قليل سنرى موضوع العفاف هذا.

كان في ذلك الوقت يشعر بميل غريب إلى القسوة، وفي تلك اللحظات وجد أمامه هذه المسكينة ليفرغ فيها شحنة غضبه وألمه. قال لها فجأة بعد أن توقف عن الضحك:

– اخلعي ملابسك.

قامت ونفذت ثم عاودت الجلوس.

أخذ يتأملها بشراهة ثم قال:

– من أين أتيتِ بهذا الجسد الجميل؟

– الله خلقه هكذا.

عاد للضحك، وقال :

– تسمعين به؟

– من؟

– الله.

صمتت وأطرقت والحزن يكاد يقتلها فتابع قائلاً :

– حدثيني يا عفاف، هل تصلين؟

– أحياناً.

كان لا يكف عن الضحك وهو لا يشعر بنفسه ويعجز عن السيطرة عليها. كان يتصرف بفظاظة وقسوة غريبتين تماماً عن طباعه، ولكنه لم يكن بعد شجاع، بل مجرد رجل سكران حتى الثمالة.

– وماذا تطلبين من الله يا عفاف؟

– أطلب منه أن ينجيني من هذه القذارة التي أعيش وسطها.

أفرغ كأسه في جوفه ومضى يصب كأساً جديدة دون أن يتوقف لحظة عن الضحك. سألها :

– ولماذا تعيشين فيها طالما تعرفين أنها قذارة؟

– الظروف والمجتمع يحكمان أحياناً.

أخذ يصفق بسخرية وهو يقول:

– تحللين المجتمع أيضاً. تعالي إذن نتحدث في السياسة...

نهضت عفاف وأخذت تصرخ :

– كفاك الآن. ما هذا كله؟ هل تظن أنك بالمال الذي دفعته قد نلت الحق بأن تهينني؟ لا يا سيد، بهذا المال امتلكت جسدي ليلة واحدة ولكني لن أسمح لك بأن تهينني أكثر من ذلك. هاك جسدي الذي دفعت فيه. هل تريده؟

صمت، فأخذت ترتدي ملابسها بغضب شديد فيما شعر وكأن ماءً بارداً قد انسكب فوق رأسه. صحا تماماً على غضبها وصراخها ونهض نحوها وأمسك بيدها قائلاً:

– أرجوك يا عفاف سامحيني. أنا لا أعرف كيف أفعل ذلك ولكنني صدقاً لست في وضعي الطبيعي.

– لست متاعاً حتى تنفس بي عن حزنك أو غضبك. ها هي شقتك عامرة ما شاء الله فخذ أي شيء وحطمه، أو لعلها أشياء ثمينة. حطم إذن شيئاً أرخص. حطم رأسك مثلاً بهذا الجدار.

– كفى يا عفاف. كفى.

كان الغضب والشراب وما وجد نفسه فيه الآن عوامل قاسية على روحه الشفافة. وفجأة ركع على ركبتيه وأخذ يبكي كالأطفال. نظرت إليه عفاف، ورأت دموعه، فتبخرت دفعة واحدة مشاعر الغضب والكراهية التي شعرت بها نحوه، وأحست بحنان يجتاحها. اقتربت منه وداعبت رأسه قائلة:

– لا بأس، لا بأس.

نظر إليها وقال:

– أنا حقاً آسف.

ابتسمت له ويدها تتخلل شعره، وقالت:

– وأنا أيضاً. لقد قسوت عليك كثيراً. واضح أنك إنسان حقيقي. لقد أحسست بي تماماً وأنا لم أعتد على ذلك.

ساد الصمت للحظات، ثم اقتربت منه وقالت :

– وبعد، هل تريدني؟

ظلَّ صامتاً فاقتربت منه وأخذت تداعبه حتى تحرك أخيراً وأخذها بين ذراعيه إلى غرفة النوم.

ومنذ تلك الليلة، بدأت علاقتهما التي لم تنته حتى الآن، ولا تلوح لها في الأفق علامات نهاية. حدثته يومها عن حياتها وظروفها، وتلك الأشياء التي قادتها إلى أن تصبح بائعة هوى، وكانت كالمعتاد الفقر والجوع والقسوة، وحدثها معتذراً مرات متعددة عما بدر منه، مؤكداً أنه كان شخصاً آخر لا يمت إلى روحه وأخلاقه الحقيقية بصلة، وأكدت له أكثر من مرة أنها سامحته، وأن دموعه كافية لإثبات صدقه ونبله، وسألته بخجل عن هذه الدموع، وهي تخشى أن يرد عليها رداً مهيناً بأن هذا ليس شأنها، لكنه أجابها، وحكى لها بعض الأشياء عن نجوى، وحين آن أوان الوداع، قالت له:

– أنت حزين يا عزيزي. لا تحزن كثيراً. قد تعيد لك الأيام حبك. ما دام هناك غد لا تفقد الأمل.

هزَّ رأسه مرات متعددة بأسى، لكنه لم يكن راغباً بمتابعة الحديث عن الموضوع، فقال لها متجاهلاً كلامها:

– وأنتِ؟ إلى متى ستعملين بهذه المهنة؟

هزت كتفيها وكأنها تقول: لا أدري، فقال لها:

– أنت طيبة وحنونة يا صديقتي. تستحقين شيئاً أفضل.

أغمضت عينيها بحنين، وابتسمت، وكاد قلبها يذوب بين ضلوعها وهي تقول:

– يا صديقتي. يا الله ما أجمل هذه الكلمة. أول مرة في حياتي أسمعها من رجل دفع ثمن جسدي وناله.

ابتسم وقال:

– اسمعي، سأساعدك على التخلص من هذا الوضع.

هزت كتفيها وقالت:

– لا تتعب نفسك. تعودت القذارة. ربما أصابتني النظافة بالمرض.

صمتت قليلاً ثم تابعت:

– ثم إنني أقوم من خلال عملي برسالة مهمة، لماذا تريد أن تحرمني إياها؟

قال بدهشة:

– رسالة؟

هزت رأسها مؤكدة وقالت:

– طبعاً رسالة. عندما يعطي الغني كسرة خبز إلى محتاجها، ألا يكون هذا عملاً نبيلاً؟ وأنا أيضاً، أمنح كسرة الحب لمن يحتاجها.

ضحك وقال:

– عظيم. قد فلسفتِ المسألة إذن؟

– لكنها ليست فلسفة فارغة.

– ربما، لكنك لا تستطيعين أن تمنحي كسرة الحب، بل كسرة الجسد. الحب أعمق بكثير من الجسد.

هزت كتفيها باستخفاف وقالت:

— هـراء. الرغـبة والجـنس همـا تسعة أعشار الحب. انظر إلى أي رجل وامرأة يبدآن علاقة، إنهما يـدوران ويـدوران وأهـم هدف في ذهن كل منهما هو الجنس. يتحدثان عن القمر والنجوم والزهور والليل والشـعر، وكـلٌ مـنهما يفكـر في الفـراش ويـلمح إليـه بخطـوات محسـوبة بحيـث لا يبدو مندفعاً بشكل رخيص، أو ممتنعاً إلى حد الرفض التام.

أمعن التفكير بكلامها، وقد بدأت تعجبه طريقة حديثها التي تكاد توحي بأنها خريجة جامعية مثقفة، لا بائعة هوى، ثم قال:

— لكن هل أنت واثقة بأن الذين يقصدونك يبحثون حقاً عن كسرة حب؟

— أبـداً، بـالعكس، أكـثرهم وحـوش مفترسـة لاهـثة. لكن المسألة تشبه أن تعطي متسولاً شيئاً من المـال. أنـت لـن تعرف أبداً إن كان بحاجة حقيقية أم أنه اتخذ المسألة مهنة، لكنك ترتاح لأنك لم ترد من سألك حاجة، وإذا كان واحد فقط من كل مئة صادقاً فهذا حسبك.

صمتت للحظات قبل أن تتابع:

— لكـن الناس في غالبيتهم لا يدركون فلسفة الجنس. حين تستبد الرغبة بجسد رجل أو امرأة فإن كـل خلية من الجسد تنادي، وليس مجرد عضو صغير تافه. لا يدركون ذلك، يظنون أن ذلك العضو هو المهـم وهـو الأسـاس. يمارسـون الجنس بأعضائهم التناسلية، أما ممارسة الحب فتتطلب اشتراك الجسد كله.

سماهـا الفيلسوفة عفاف منذ تلك الليلة، وقد تضايقت أول الأمر من السخرية المبطنة التي تنطوي عليها التسـمية، ثـم مـا لبـثت أن تقبلتها ووافقت عليها برضى. ودامت علاقتهما، دامت بفضل إصرارهما معاً عـلى اسـتمرارها. كـانت وفيـة لفلسـفتها التي تقول إن جسد امرأة طري وحار ومشتعل بالشوق هو خير دواء لـلرجل المـتوحد الحـزين، وكـانت واثقـة تمامـاً من أنه متوحد وحزين، فخلف الضجيج والحماس والاندفـاع، كـانت هـي مـن بين القلائل الذين لمحوا ذلك الشجن الخفي الذي طوى جناحيه عليه منذ زمن طويل.

-٧-

"قتيبة. لقد رحلوا جميعاً. ممثلا العلم والعقل، أستاذا الجامعة، اللذان يشبهانك قليلاً، وممثلة العاطفة والانفعال، بائعة الهوى، التي تشبهني قليلاً. الميزان لصالحك بالتأكيد. أستاذ الجامعة مقابل بائعة هوى! يا لها من خسارة مدوية لي. لكن، لا تفرح كثيراً، هذه مجرد نقطة صغيرة لصالحك في العلاقة الطويلة التي ستقوم بيننا"

"اسمع. لا بد أن أحدد بقية صفاتك وأفكارك قبل أن أبدأ في خلق الشخصيات والأجواء التي ستتحرك فيها. هذا أمر مهم جداً بالنسبة لي، حتى لو كنت لن آتي على ذكر بعض هذه الصفات والأفكار في الرواية، فإنني لا بد أن أعرفها جيداً، لأنها هي التي ستتحكم بقراراتك وردود أفعالك"

"خذ مثلاً موضوع تلك الصديقة الجميلة التي غادرتني قبل دقائق، عفاف. إنها تجعلني أطرح عليك سؤالاً حول علاقتك بالمرأة. هل عرفت الحب؟ أو، هل أنت مرشح جيد للوقوع في الحب؟ ثم هل كانت لك تجارب كثيرة مع الجسد؟ لن أُستدرج إلى ذلك الجواب الساذج السهل، بأن أقول بأن انتماءك للعقل إلى هذا الحد، يجعل علاقتك بالمرأة معدومة. لا. هذا ليس ضرورياً، وقد عرفت في حياتي رجالاً علميين، وفي الوقت نفسه لديهم الكثير من الشاعرية في علاقتهم بالمرأة. أنت مثلاً، يمكنني أن أعطيك هذه الصفة أو تلك. أنا حر في ذلك، لأنني، مهما كان قراري، فلن أرتكب تناقضاً بحق شخصيتك. لنقل إنك في شبابك الأول، مررت بعلاقة عاطفية جميلة، قبل أن تنحاز انحيازاً كلياً إلى العقل، ومن الممكن أن يكون هذا قد حدث في السنة الأولى أو الثانية من دراستك الجامعية، ولنفرض أن هذه العلاقة قد فشلت، كما يحدث في أغلب الأحيان للعلاقات التي تبدأ في هذا العمر المبكر. لكنك فيما بعد درستَ في الخارج لعدة سنوات، ويجب على المرء أن يكون راهباً، أو مجنوناً، لكي يقيم في الخارج سنوات دون أن ينشئ علاقة عاطفية، أو جسدية على الأقل. إذن، أنت في الخارج أقمت علاقتين مثلاً، وبسبب تركيز اهتمامك على دراستك، يجب أن نقول إنك لم تكن المبادر في أيٍّ من هاتين العلاقتين، لكنك تجاوبت مع مبادرة المرأة. هذا حسن، فلا يجدر بالمرء أن يكون قاسياً إلى حد الرفض في مثل هذه الحالات. بدأتَ تعجبني قليلاً. ومع ذلك، فأنا أراهن أن الحبيبة الأولى التي عرفتَها في الخارج، إن كان يجوز أن نسميها حبيبة، قد هجرتك لأنها كانت تنتظر منك أن تحمل لها زهوراً في عيد ميلادها، فإذا بك تأتي لها بمجموعة من الكتب! أما الثانية، فقد كنتَ في أحد الأيام تتعذب في حل مسألة هندسية ما، حين جاءتك. وعندما أصبحتما في الفراش، هبط عليك الوحي، وعرفتَ الحل، فاستأذنتَها لدقائق حتى تكتب الحل قبل أن يضيع منك، لكنك حين عدتَ إليها، كانت قد لملمت ثيابها ورحلت"

"على كل حال، أنت الآن في نحو الثلاثين، ولا بد أن تفكر قريباً في الزواج. سنجعل هذا يأتي ضمن أحداث الرواية، ولن أستعجل إيجاد جواب حول نجاحك أو فشلك في هذا الموضوع منذ الآن، لكنك يا صديقي، ولتعلم ذلك، رجل بائس. كيف تتعامل مع ذكرى تلك الإنسانة التي أحببتها في أوائل دراستك الجامعية بكل هذا البرود؟ إنها حتى لا تخطر على بالك، ولو قابلتَها في الشارع صدفة، فإنك قد تجد صعوبة في التعرف عليها، أما حين تتأكد، فسيكون من السهل عليك أن تصافحها، وتتبادل معها حديثاً قصيراً، وتسألها عن البيت والأولاد والعمل! طبعاً لستَ مضطراً لأن تعيش علاقة حب أبدية مع ذكرى، كما أفعل أنا، ثم إن حبيبتك الأولى قد لا تكون بالبهاء الذي كانت عليه نجوى، وقد لا تستحق كل هذا، لكنني متأكد أنها حتى لو كانت نجوى نفسها، فإن طريقة تعاملك لم تكن لتختلف. كيف تفعل ذلك بنفسك؟ كيف ترضى أن تكون بعيداً عن الحب؟ ها أنذا أمامك. من حيث المبدأ، أنا أيضاً رجل علم. أنا لم أبدأ الكتابة إلا منذ أربع سنوات، لكنني تخرجت طبيباً منذ اثنتي عشرة سنة. العلم سابق على الأدب في حياتي إذن، ورغم ذلك، فإن المرأة قد حضرت فيها جيداً، وقد عرفت تماماً كيف أسعدها، وكيف أصعد بها ومعها بالحب إلى ذرى، لن تحلم بحياتك أن تبلغها"

"لكن، ويا للأسف يا قتيبة، أنا لم أصبح كذلك إلا بعد نجوى. نجوى هي المرأة الوحيدة التي استعصى عليَّ أن أحلّق بها إلى العلا. كنت في حينها بلا جناحين. كنت هشاً صغيراً قليل الحيلة، أما هي، فإن روحها التي تشاركني حياتي في هذه الشقة، تصعد بي باستمرار نحو القمم الشامخة التي عجزنا عن الصعود إليها، حين كنا لا نزال معاً"

"آه نجوى. ما الذي جعلك تذكّرني بها الآن؟ ما الذي جعلك تذكرني بالاسم الأكثر إشراقاً وبهجة، وشجناً في الوقت نفسه، للحب"

"نعم. لقد فقدتها لأنني كنت هشاً صغيراً قليل الحيلة، فأنا يا عزيزي، قد وصلت إلى نجوى وأنا مجرد طفل كبير! اكتشفت ذلك متأخراً في الحقيقة، لأنني، حين رحلتْ عني، قسوت عليها في سري، واتهمتها بأنها تلاعبت بعواطفي طويلاً، لكنني بعد زمن، اكتشفت أنني خسرتها لأنني لا أستحقها، واكتشفت أيضاً أن لا شيء فيَّ وفي ماضيَّ يعجبني على وجه التقريب. في تلك الفترة، قسوت على نفسي وعلى ماضييَّ الذي سميته تافهاً، ثم عدت عن هذا القول وقلت إن ماضيَّ لم يكن تافهاً، بل لعل كل ما فيه كان رائعاً، لكن هناك خربطة في التوقيت. فلا الطفولة طفولة، ولا المراهقة مراهقة، ولا شيء على الإطلاق يجري في الوقت الصحيح والمناسب"

"وأنا يا صديقي، في الحقيقة، كنت طفلاً عجيباً غريباً. فإذا كانت البراءة والوداعة والطاعة صفات طفولية طبيعية، فإنني لم أغادر هذه الصفات إلى أن نلت الشهادة الإعدادية، وهذا وقت متأخر كثيراً.

ولعلني الطفل الوحيد الذي ظل حتى العاشرة من عمره أو أكثر قليلاً، لا يرد الضربة مهما كلف الأمر. كل ما هنالك أنني كنت آتي إلى أمي أو أبي باكياً وأنا أشكو طفلاً آخر ضربني رغم أنه قد يكون أضعف مني من حيث البنية الجسدية. في إحدى المرات صاح فيَّ أبي:

— انظر يا شجاع، كفاك نوحاً وبكاءً كالنساء. من يضربك اضربه ولا تأتني مرة أخرى شاكياً.

قال والدي ذلك وهو على الأرجح يلعن سوء الحظ، فهذا آخر طفل كان يتمنى أن يراه ابناً له، وهو لا يشبه أبداً ذاك الذي فكر فيه وهو يملي الاسم باعتزاز على مسامع موظف الأحوال المدنية معلناً ولادة طفل اسمه شجاع فارس، وكأنه يقول: إذا كان هذا هو اسمه، فانتظروا لتروا كيف سيكون فعله"

"في وقت لاحق، حين سمعت من صديق مسيحي لي في المدرسة أن المسيح يقول: "من ضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر"، لم أعطِ فرحتي لأحد، وهتفت في سري بفرح:

— ها. أخيراً. هذه هي. لا شك أن نبياً من أنبياء الله يفهم في هذه المسائل أكثر من أبي.

وقد ظلت عائلتي تتذكر وسط الضحك والحنين ذلك اليوم الذي عدت فيه من المدرسة لأسرَّ إلى أمي بأن طفلاً معي في الصف هو طفل قليل الأدب، إلى حد أنه قال لي اليوم كلمة "يا لطيف كم هي فظيعة". يومها، اجتمعت العائلة بكاملها حولي وهم يحاولون بشتى الوسائل والإغراءات استخراج هذه الكلمة مني، وقد ظلت محاولاتهم عديمة الجدوى لوقت طويل كان وجهي خلاله يكتسي بألوان متعددة، إلى أن تفتق ذهني أخيراً عن حل للخلاص من هذه الورطة، فطلبت ورقة وقلماً لأكتب لهم تلك الكلمة، وحين جيء لي بها، كتبت الكلمة ببطء، ثم رميت لهم الورقة وانطلقت بسرعة البرق إلى غرفتي حيث لحقتني إلى هناك أصوات ضحكاتهم العالية وهم يقرؤون على ورقتي كلمة: "طظ"!"

"بعد سنوات طويلة من ذلك، وبعد أن غادرت تلك المرحلة، بل ونفضت يديَّ منها متبرئاً، صرت أقول في نفسي: حسناً، هذه أشياء قد تكون جميلة، لكنها جميلة للسنوات الخمس أو السبع الأولى من حياة الإنسان على أبعد تقدير، أما أكثر من ذلك، فهذا جنون. يا إلهي كم أضعت من الوقت"

"أما حين أصبحت في سنة الشهادة الإعدادية فقد اكتشفت المراهقة عبر شيئ واحد لا غير هو السيجارة. وبما أن رفاق السوء من حولي كانوا قلائل بحكم طبيعتي التي لا تجذب هذا النوع من الرفاق، فقد ارتكبت خطيئة السيجارة وحيداً ودون إغراء من أحد. بكل بساطة سحبت سيجارة من علبة والدي وجربتها، وبعد أن سعلت إلى أن سالت دموعي، أقسمت أنني لن أكررها. لكنني بعد أيام كررتها، لترافقني منذ تلك الأيام البعيدة حتى الآن"

"ومع أصدقائي القلائل، الذين سبقوني إلى التدخين دون أن يحاولوا إغرائي به، مضيت أشرب سجائري في السر، ومضينا نكتشف عالماً آخر من المتع الحسية الجميلة. فبين الحين والآخر، لا بد أن يجلب أحدهم مجموعة من الصور، أو فيلماً، أو حكايات، حول ذلك المجهول البعيد: جسد الأنثى"

"ومع هذين الاكتشافين، اعتبرت أنني قد فسدت زيادة عن اللزوم، وأخذت أحاول العودة إلى الطريق القويم، فحاولت الإقلاع عن التدخين أكثر من مرة، وأخذت أبتعد قدر ما أمكنني الابتعاد، عن الحكايات الماجنة حول المرأة"

"هكذا، لم أمضِ مع رفاقي إلى ما هو أبعد من ذلك، وحين راحوا يكتشفون جسد الأنثى بأنفسهم بدلاً من الصور والأفلام، كنت أقرأ ثلاثية نجيب محفوظ، أو أسأل نفسي بعض الأسئلة التي بدأت تؤرقني مزعزعة بعض الشيء سلام اليقين الذي كنت أنعم به قبل ذلك، ومنذ ذلك الوقت بدأ ينمو لديَّ التزام أخذ يتعمق أكثر فأكثر بأفكار العدالة والمساواة. إنني أذكر تماماً يا قتيبة كيف أمضيت ذات يوم من المرحلة الثانوية، حصة دراسية مملة وأنا أحفر اسم سورية على مقعدي الخشبي. يومها كتبتها بالإنكليزية "SYRIA" وبالخط العريض. كانت شعبتي قد انقسمت قبل ذلك اليوم بعدة أسابيع إلى قسمين: الاشتراكيون والرأسماليون. كنا قد درسنا هذه الأفكار قبل مدة وجيزة، فانجذب بعضنا إلى الإشتراكية وآخرون إلى الرأسمالية، وهؤلاء سموا أنفسهم رأسماليين بكل براءة وسذاجة رغم أن بعضهم كان من أفقر أولاد المدرسة. حين انتهت الحصة واندفع الطلاب إلى الباحة، وقف أحدهم فجأة أمام هذه الكلمة بدهشة، وسألني:

— اشتراكي؟

وبالرغم من أنني لم أكن قد فكرت بهذه المسألة كثيراً من قبل، فإنني وجدت نفسي أهز رأسي بالإيجاب، مع أن ما كتبته لا علاقة له بما سئلت عنه. يومها، نظر إليَّ الفتى نظرة استنكار، وضحك ملياً قبل أن يمضي في طريقه"

"وصارت الأسئلة تكبر، وأخذت أمضي وقتاً أطول وحيداً وأنا أفكر وأتساءل، وككرة الثلج كبر الشك حتى انهار اليقين انهياراً تاماً، وقد كان لانهياره وقع مزلزل. فأنا كنت في نحو العشرين من عمري في ذلك الوقت، لكنني لم أكن رغم كل شيء قد غادرت الطفولة تماماً بعد، وأمي، كما هي الأم لكل طفل صغير، أو كبير، كانت الكائن الأهم في حياتي، والآراء التي كانت تنقلها إليَّ أمي طوال الوقت عن الله وأنبيائه آراء طيبة للغاية. بذلك، لم يكن سهلاً عليَّ انهيار اليقين. كنت أشعر أنني في الوقت نفسه الذي أفقد فيه القناعة المطمئنة بأن الخير سينتصر في النهاية بإرادة لا راد لمشيئتها، فإنني أخالف أيضاً إرادة أمي ورغبتها، لكن اليقين كان قد انهار وقضي الأمر"

"لم يكن ما أفعله خطأً بالمعنى الكامل يا قتيبة. أليس كذلك؟ هذه الأسئلة والشكوك كونتني، صنعتني كما أنا الآن. لكن لماذا تركتها تبعدني عن العالم؟ لماذا لم أقم بكل هذه الأشياء في وقت واحد؟ التساؤل والتفكير والقراءة، وأيضاً التجربة؟ إذا لم يكن هذا ممكناً فلماذا لم أؤجل هذه الأسئلة بضع سنوات؟ حقيقةً، لا شيء كان يجري معي في وقته الصحيح والمناسب"

"صحيح أنني اندفعت في سنيَّ الجامعية الأخيرة وراء تجربة مثيرة وطويلة، لكن رغم ذلك لا بد من الاعتراف: شريكتي في التجربة كانت هي صاحبة المبادرة، ثم إنها كانت الطرف الذي أمسك بزمام العلاقة وقادها بالطريقة التي شاءها. حتى في ذلك اليوم الوحيد الذي أحاطتنا فيه أربعة جدران آمنة، نعم، حتى في ظرف كهذا، فإنني مستعد لأن أقسم بأنني كنت سأخرج من هذه الجدران بعد حديث طويل يقتصر على الشعر وضوء القمر، ولكنني لحسن الحظ حظيت بشريكة تمتلك أفقاً أوسع قليلاً، وهكذا عرفت لمرة يتيمة، وبشكل غير نظري، تجربة الجسد، وإن كنت أترك لك أن تقدر كم كنت مرتبكاً. لا! لا يشطحنَّ بك الخيال بعيداً. لقد نجح الأمر في خاتمة المطاف"

"هكذا استلمتني نجوى، طفلاً كبيراً في الثامنة والعشرين من عمره لم يقصّر أبداً بحق نفسه فيما يتعلق بالأفكار والأسئلة، لكنه قصّر تقصيراً لا يغتفر في التجربة. كانت أول حب في حياتي، (نعم، فتلك التجربة الأولى لا يمكن أن تسمى حباً بحال من الأحوال)، وكنت لا أعرف أي شيء حقيقي عن المرأة، وهكذا دخلت حياتها كالنسيم، في حين كانت تحتاج مني أن أقتحمها كالعاصفة لأداوي شرخاً كان يمزق روحها"

"في جميع الأحوال، بعد ذلك تحسنت، أو فسدت، حسب وجهة نظرك في الموضوع، التي، على الأرجح، تميل إلى الرأي الثاني. فسدت، إلى درجة أنني في وقت من الأوقات ضبطت نفسي وأنا أقيم علاقات مع ثلاث نساء في وقت واحد! لم أنتبه إلى ذلك في الحقيقة، إلا حين حلَّ يوم عيد ميلادي، فتلقيت منذ الصباح ثلاثة اتصالات هاتفية للتهنئة، وكانت كلٌ منهن ترغب في أن تكون أول من يعايدني! بالمناسبة، إحداهن كانت قد أحبتني فقط حين علمت أنني كاتب، وهذه فضيلة أخرى للأدب"

"إيه نجوى. سمعت فيما بعد أنها قد رحلت عن دمشق، وتزوجت، فلم أحاول على الإطلاق أن أبحث عنها، إذ لم يكن بإمكاني أن أتصور أن أراها وهي تتأبط ذراع رجل آخر. لكنني بعد زمن ليس ببعيد، بدأت بالكتابة. أنا معك الآن، أحاول إنجاز روايتي الثانية، وفي كل ما أكتب، تسيطر على خيالي أمنية واحدة: أن تقرأني نجوى. صار لديَّ قراء بالمئات، وربما أكثر، لكنني أكتب أولاً، وقبلهم جميعاً، من أجل نجوى"

"هـذا هو الحب يا أستاذ. لقد دفعتَني لأن أنساك وأفكر بنفسي بدلاً من التفكير بك، لكن لا بأس، فقد حملتني هذه الذكريات إلى المنطقة الأكثر حنواً وشفافية في روحي. أما أنت، فيا لك من مسكين! أجل، أؤكـد لـك ذلك، فأنا يا صديقي مستعد لتمزيق كل رواياتي، وكل كتب علومك، مطيحاً في الوقت نفسه بوجـودك نفسـه، مـن أجـل لحظـة أطـلّ فيهـا بعيـني عـلى نجوى، لأعرف فقط إن كانت تلك الإلهة الجميلة، سعيدة"

-٨-

حين جلس شجاع قبالة الأستاذ قصي، صاحب دار السعادة للنشر، بادره هذا قائلاً:

- شرفتنا أستاذ شجاع. أنا سعيد جداً بهذه الزيارة.

ابتسم شجاع وقال:

- شكراً أستاذ قصي.

- أتعرف؟ كنت أود منذ زمن طويل أن ألتقي بك لأعبر لك عن مدى إعجابي بروايتك الأولى. إنها مبشرة تماماً. صحيح أن المرء يستطيع أن يسجل عليها عدداً من الملاحظات، إلا أنني واحد من الناس الذين يتعاملون مع عمل أدبي ما ككل، وطالما أنه متميز كعمل كامل، فلا توجد ضرورة للتوقف عند كل جملة أو كلمة فيه لمحاكمتها.

ابتسم شجاع، مع قليل من الخيبة، وقال:

- يسعدني أن أسمع ذلك من ناشر له باع طويل في التعامل مع الأدب.

جاء موظف بفنجاني قهوة، فتناول شجاع فنجانه، وأشعل سيجارة، فيما كان الأستاذ قصي يقول:

- ربما قرأتَ في الصحف عن المسابقة التي أعلنّا عنها.

- نعم، بالطبع.

- نحن نريد أن نعرض النصوص التي تردنا على سبعة من الأدباء السوريين يشكلون لجنة التحكيم، وسنكون مسرورين إن قبلتَ أن تكون واحداً منهم.

ابتسم شجاع وقال:

- أرجو ألا تتعامل معي بهذه الطريقة أستاذ قصي. تكاد تصيبني بغرور قاتل. أنا من عليه أن يكون سعيداً بكونه عضواً في لجنة تحكيم أدبية.

- حسناً. هذا تواضع يليق بك.

- المهم أستاذ قصي، أود أن أعرف المعيار الذي وضعتموه لتقييم هذه الأعمال.

فكر الأستاذ قصي قليلاً، ثم قال:

- المعيار الوحيد هو الالتزام.

ارتشف شجاع القليل من القهوة، ثم نظر إلى الأستاذ قصي بشيء من الخجل، وسأل:

- الالتزام...الالتزام بماذا، لو سمحت؟

نظر قصي إليه بدهشة، وابتسم هو الآخر ابتسامة تحمل شيئاً من اللوم، وقال:

- ماذا تعني أستاذ شجاع بهذا السؤال؟ هل يحتاج الالتزام إلى تعريف؟

بطريقته الدائمة، التي تحسب حساباً كبيراً لمشاعر الطرف الآخر، قال شجاع بشيء من الارتباك:

— يعني...أقصد أنني أريد أن أفهم نوعية القضايا التي تريدون من المتقدمين للمسابقة أن يلتزموا بها.

قال قصي ببعض الحدة:

— أعترف بأنني لا أفهمك أستاذ شجاع. ولو لم تكن روايتك الأولى مثالاً ناصعاً على الالتزام بقضايا الوطن، لقلت إنك واحد من هؤلاء الذين يروجون لأدب لا معنى له، أدب ذاتي بحت، أو غزلي بحت، أو ربما لكتابة لا هدف لها إلا استعراض القدرات اللغوية والجمالية.

شعر شجاع بشيء من الحرج. ها هو ذا يقف أمام هرم من أهرام النقد، ليجادل بطريقة قد توحي بالغرور المبالغ به. لكنه رغم ذلك كان مدفوعاً بطريقة لا تُقاوم لمناقشة الأمر. قال:

— أرجو ألا تسيء فهمي أستاذ قصي. أنا مجرد رجل هاوٍ في مجال الأدب، ولا أمتلك خبرة واسعة في النقد، أو في المذاهب الأدبية المختلفة. أعرف تماماً مكانتك في هذه المجالات، لذلك أشعر أن مناقشتي لك فيها تنطوي على شيء من الوقاحة...

قاطعه قصي بتسامح صادق:

— معاذ الله أستاذ شجاع. بالعكس تماماً. أنا سعيد بهذه المناقشة.

ابتسم شجاع، وقال بثقة:

— حسناً. أستطيع أن أفهم الالتزام بأنه التزام بالقضايا الوطنية والاجتماعية، وبثابتنا الوطني الرئيس في صراعنا مع الصهيونية.

هز قصي رأسه مؤكداً، فتابع شجاع:

— لكنني رغم ذلك أنفر من نوعية من الأدب تكاد تتحول إلى بيانات سياسية دعائية.

قال قصي:

— وأنا أيضاً.

— حسناً. يبدو أننا متفقان، ولكن، لأوضح أكثر، بما أنك ذكرتَ الأدب الغزلي والذاتي. أريد أن أقول إنني أشعر بنفسي أقوى في جميع المجالات، بما فيها مقارعة الأعداء، بعد الاستماع إلى قصيدة غزلية لنزار، أو إلى أغنية حب جميلة لفيروز، أكثر مما لو سمعت "خبطة قدمكم عالأرض هدارة"

قطب قصي حاجبيه بشيء من عدم الرضى، فأعاد شجاع إلى حالة الارتباك:

— أنا أحب "خبطة قدمكم" كثيراً، كما أحب كل قصيدة أو رواية تتغنى بالوطن، لكنني أطلب من العمل الفني أن يكون جميلاً أولاً، وملتزماً ثانياً.

رد قصي:

— أنت تتحدث عن بديهيات أستاذ شجاع. أنت تقول "عمل فني"، لكن أيُّ شيء يستحق هذا الاسم إن لم يكن جميلاً؟

قال شجاع:

— أشكرك على حسن فهمك لي أستاذ قصي. لقد قلتُ ما قلتُه لسبب واحد فقط، وهو أنني ألاحظ أن بعض الأعمال تنال الكثير من التقريظ، والبعض الآخر بالمقابل يُحط به إلى أسفل السافلين، بناء على معيار وحيد، هو الموقف السياسي للكاتب.

اعترض قصي:

— لا أظن أنك تريدني أن أمتدح أعمالاً تروج للتطبيع على سبيل المثال؟

هز شجاع رأسه نافياً بشدة وهو يقول:

— نهائياً. هذا ليس موقفاً سياسياً أصلاً. أنا أعني المواقف السياسية المختلفة، والتي تُجمع، رغم اختلافها، على المصلحة الوطنية، أما تلك التي تصب في خانة انهزامية، فإنني لا أقبل أن أروج لها على الإطلاق، حتى لو كنتُ أستطيع العثور فيها على أدب جميل.

قال قصي بعد تفكير قصير:

— أوافقك، باستثناء فكرتك حول إمكانية العثور على أدب جميل في عمل انهزامي. هذا يتوقف على تعريف الجمال. بالنسبة لي، العمل الأدبي فكر ولغة، ولا أستطيع أن أسمي عملاً ما جميلاً إلا إذا تمتع بالجمال من الناحيتين. لا يعنيني استخدام لغة جميلة للترويج لفكر خبيث.

هز شجاع رأسه مؤكداً وهو يقول:

— تماماً، وهذا هو السبب الذي دفعني للقول بأنني لا أقبل الترويج لهذه النوعية من الأعمال. يسعدني أننا متفقان.

ابتسم قصي بطريقة أبوية، وقال:

— بالتأكيد أستاذ شجاع. بالتأكيد.

-٩-

"حسناً يا قتيبة. ها قد لاحظتَ كيف يمكن أن ينشأ سوء الفهم. ماذا لو كان شخص آخر، أقل تسامحاً من الأستاذ قصي، هو الجالس قبالتي؟ كان الأمر سيتحول سجالاً بين رجل كبير سبق وأن خاض تجربة واسعة في مجاله، وبين شاب يتنطح لمجادلته في "بديهيات" كما وصفها الأستاذ قصي، لا لشيء، إلا لإثبات حضور في غير مكانه تماماً"

"لحسن الحظ أنه كان الأستاذ قصي، وليس شخصاً آخر. هذا رجل يستحق وصف الرجل المثقف بكل جدارة. لقد عرف كيف يستوعبني"

"أسأل نفسي، كم من مرة نجد أنفسنا ندخل في حالات من السجال والمقارعة اللغوية، دون وجود خلاف حقيقي، بل فقط بوجود سوء الفهم؟ كم هو كبير عدد المرات التي يمكنك فيها أن تعثر على شخصين في حالة جدال حاد، أو ربما خصومة، ولكنكَ متأكد أنك في ساعة الحقيقة ستعثر عليهما في خندق واحد"

"نعم. إنني أتحدث عن الفارق الجوهري بين الحوار واللغو. ما حدث بيني وبين الأستاذ قصي اسمه حوار، حتى لو لم نكن قد توصلنا إلى نتيجة واحدة، لأن كلاً منا كان يتعامل مع الآخر بتسامح، وباحترام، أما ما يحدث في كثير من الأحيان فإنه لا يزيد عن اللغو، حين يكون المطلوب بالنسبة لكلا الطرفين هو أمر واحد فقط لا غير: تركيع الطرف الآخر وإذلاله"

"وماذا عما يحدث بيني وبينك، أيها الصديق؟ أستطيع أن أدعي، بالرغم من عدم التكافؤ، وبالرغم من سيطرتي التامة، منفرداً، على علاقتنا،بأنه حوار. إنه حوار كبير وراقٍ. حوار أحتاج إليه، وأتطلبه، فأجهد في خلق أدواته، فأحصل مرة عليك، ومرة على سواك، وفي جميع الأوقات على نجوى"

"إنه حوار بيني وبين نفسي. سؤال أطرحه وأترك لبنات أفكاري أن تتحاور بشأنه، وسأكون أكثر غنى بعد الاستماع لجميع الأفكار حول الموضوع، بما فيها تلك التي سأطويها وأرفضها في نهاية الأمر. لذلك، أتمنى ألا يكون لديك أي شعور بالضعف تجاهي يا عزيزي، فالحقيقة، هي أنني أحتاج إليك أكثر بكثير مما تحتاج إليَّ"

"ولكن ما رأيك بما جرى من حديث بيني وبين الأستاذ قصي؟ نعم. لقد لمحتُ ابتسامتك المشجعة حين سألتُه: (الالتزام بماذا؟، لو سمحت؟) قلتَ لي لحظتها: "برافو شجاع. لقد وضعتَه في موقف صعب". أسعدك تماماً أن تجدني أشكّك بمعنى الالتزام، بل أعجبتك الطريقة شبه الساخرة للسؤال، أما حين تحدث هو ببعض الحدة عن الأدب الذاتي والغزلي، فقد نظرتَ إليه بسخرية، ثم حولتَ أنظارك إليَّ محرضاً، وقلتَ لي: "أفحمه"، وحين حدثتُه بشيء من الخجل، نظرت إليَّ لائماً وأنت

تقول: "لماذا تتصرف بضعف؟ موقفك قوي جداً. لا تتردد"، ثم لمحتُ في عينيك نظرة الإعجاب والتقدير حين ضربتُ مثالي عن نزار وفيروز، لا لأنني امتدحتُهما، فأنت في الحقيقة لا تقرأ لنزار ولا تستمع لفيروز، ولكن فقط لأنك فهمتَ أنني أذم "خبطة قدمكم"، وما ينتمي إلى النمط نفسه من الاعتزاز بالذات وإثارة الحماس، وقد أغاظك تماماً أن أوضح أنني أحب "خبطة قدمكم" كثيراً، بل سمعتُ صوتك بوضوح تقول: "تحبها؟ حقاً؟ لكن أخبرني بحق الله، متى كانت خبطة قدمكم عالأرض هدارة فعلاً؟"، ثم وصل استنكارك إلى أقصاه، حين اتفقنا تماماً على أننا لا يمكن أن نمتدح أعمالاً تروج للتطبيع، وسمعتك تقول: "ها ها! أنتم تستثنون بعض الناس والأفكار إذن! يا لها من ديمقراطية مدهشة!"، وأشحتَ بوجهكَ، رافضاً متابعة الحوار"

"حسناً. في حينها كان عليَّ أن أناقش الأستاذ قصي، ولم يكن لديَّ الوقت لأوليك أي اهتمام، أما الآن فأنا متفرغ لك تماماً، وأريد أن أرد عليك"

"أنت لا تقرأ لنزار، ولا تستمع لفيروز، ولا يكاد الأدب يعني لك شيئاً، بل إنك ربما تتساءل في قرارة نفسك عن الحكمة الكامنة وراء كتابة القصص. طبعاً، هذه نقطة ضعف أولى في موقفك، فحين تختصر الموضوع برمته إلى "كتابة القصص" فأنت تكشف عن جهل مريع بالأدب، وبالرواية تحديداً. أنت تسميها "قصة"، وكأنك تتوقع منها أن تسرد لك أحداثاً مشوقة ذات بداية ونهاية واضحتين، بينما الرواية هي شيء مختلف تماماً. إنها شيء من القصة وشيء من الشعر وشيء من البوح وشيء من الفلسفة. ها قد لاحظتَ إذن! القصة لا تشكل إلا مكوناً واحداً منها، وهذا المكوّن هو أداة في يدك قد تستخدمها وقد لا تفعل، أي أنك بالفعل قد تعثر على رواية عظيمة، دون أن تعثر داخلها على قصة"

"ورغم كل شيء، ألمحك تتساءل: "حسناً، دعك من القصص، لكن ما هو السبب الذي يجعل الأدب برمته موجوداً؟"

"طبعاً لن أمتلك أي جواب يقنعك. هذه مسألة لا مكان فيها للإقناع. إنها مرتبطة بموقفك من الجمال. فموقفك من الجمال مرتبط تماماً بوجود القانون. الجمال الذي يعنيك جمال هندسي بحت. إنه يكمن في المثلث المغلق، وفي الدائرة المغلقة. هذان، يخضعان لقوانين صارمة تعتبرها أنت آية في الجمال، وتعتبر اكتشاف الإنسان لهذه القوانين هو الأرفع بين الجهود الإنسانية كافة"

"أنا أيضاً ألمح الجمال في هذه القوانين، وألمح العظمة في الجهود الإنسانية التي أدت إلى اكتشافها، لكنني أجنح أيضاً إلى مناطق أخرى، فأستطيع أن ألمح الجمال في المناطق المفتوحة التي لا تخضع لأي قانون، في التعرجات والاستدارات غير المنطقية، وفي بناء اللغة، وفي إنطاق الذرات بالأصوات والألحان"

"هـذا موقف لا يخضع للمناقشة. لا أحد يستطيع إقناع الآخر بأن شيئاً ما هو شيء جميل، لكنني أجد أن موقفك يـنطوي على الكثير من الجرأة، لكي لا أقول الوقاحة، حين يكون هذا هو رأيك في الجمال، ثم تتنطح للهجوم على عمل بحجم "خبطة قدمكم"، أو على كل ما يشبهه"

"فمـا دمـتَ لا تكـنّ الكـثير من الاحترام لهذا النوع من النشاط الإنساني، فمن أين تملك الحق في الحكم عـلى بعضـه، فقـط لأنـه يـتعارض مـع توجهـاتك العـلمية والفكـرية، ولماذا؟ يا له من سؤال ذاك الذي طرحـتَه: "مـتى كـانت خـبطة قدمكـم عـالأرض هـدارة فعـلاً؟". نعـم يـا سيدي. لقد تغنينا على الدوام بانتصـارات لم تحصل، وبقدرات لم نمتلكها، وبوطن لا يُهزم، رغم أن وطناً آخر في العالم لم يتعرض لما تعرضـنا له مـن هزائم، وكان هذا، في رأيي، عملاً رائعاً. لا تستغرب، أقول إن هذا عمل رائع لأنه يدل دلالة واضحة على أننا لم نفقد إرادة الحياة، وأننا لا زلنا نتطلب الأقصى"

"أنظـر مـثلاً إلى الـروايات الـتي تـتحدث عـن الحـب. هل يمكنك العثور على أرض الواقع، على حبٍ يتمـتع بالعظمة نفسها التي تتحدث عنها الروايات؟ أجزم بأن هذا أمر نادر، لكن الحديث عن الحب، في أقصـى حـالات توهجه وسطوعه، يبقى أمراً رائعاً. إنه هو بالذات الذي يبقي على الحب كقيمة عليا لهـا حالـة قصـوى مـن الكمـال، ويبقي بالتالي على عشاق ينشدون هذه الحالة، ويقتربون منها إلى هذا الحد أو ذاك"

"الأمـر نفسـه ينطـبق عـلى الحديث عن وطن غير حقيقي، وعن انتصارات غير واقعية. هذا يشكّل حداً أقصـى نـريده ونطلـبه ولم نتـنازل عنه حتى اللحظة، بالرغم من كل ما جرى، وأرى أن الحديث بهذه الطـريقة هـو أكـثر غـنى وفـائدة بكـثير، مـن تـلك "الواقعيـة" كمـا يسمونها، والتي تريد إفقادي ثقتي بنفسي، وبحقي في الحياة، وباستحقاقي لها"

"واقعيـة ذليـلة. هـذا فقط ما أستطيع أن أصفها به. إنها منتشرة بكثرة في ذلك النوع من الأدب الذي لا يـنطوي إلا على تقريع للذات وإعجاب بالآخر، بل إنها متداولة في مفردات شعبية كثيرة ترمي جميعها إلى إقـناعك بـأن هـذا الواقـع هو قدرك النهائي، لأن هذا هو سقف قدراتك، وعليك ألا تحلم بأن تكون كأولـئك، الخـالين من أي خطأ، والذين اجترحوا معجزة الحضارة التقنية الحديثة ويعيشون في نعيمها. لا! إنهم جنس آخر وعليكَ ألا تأمل بأن تبلغ ما بلغوه في يوم من الأيام"

"ربمـا أقنعـتك قـليلاً، فهـذه النتـيجة الأخـيرة مضـادة تماماً لموقفك الأصلي. ألم أقل إنك تضع جهدك العـلمي في خدمـة بـلادك؟ هـذا يعني أنك تمتلك الأمل، وإلا لكان عليك أن تبقى هناك. أنت لم تفعل. لقد عدتَ لأنك مؤمن أن بإمكانِكَ أن تضع جهودك في خدمة التقدم. الأمر فقط هو أنك لا تؤمن بأي نوع من الخطاب الحماسي"

"أترى؟ نحن غير مختلفين كثيراً. كنت أتحدث عن سوء الفهم، فإذا بي أصل معك إلى سوء فهم حقيقي. رغم ذلك أستطيع أن أسمع سؤالك بوضوح: "ما دمتَ تقول ذلك، فلماذا بحق الله جادلتَ الأستاذ قصي من الأساس؟"

"معك حق! ولكن ألم أعترف بأنه سوء فهم لا مبرر له؟ كان كل ما أريد قوله هو إنني أتطلب الجمال. أتطلب أدباً وفناً ملتزمين، لكنهما ينطقان عن التزامهما ممتزجاً بالحنان، بالحب، بالجمال، لا بصليل السيوف ومفردات الفخر والسؤدد. ربما بدا لك هذا متناقضاً مع ما كنت أقوله قبل قليل، ولكن لا. إنني أتطلب الأمرين معاً. ما أرفضه هو فقط أن تتحول حياتي بكاملها إلى استعراض للأمجاد والمفاخر. أريد القليل من هذا، لكنني أطلب بإلحاح الكثير من ذاك: الحب والحنان والجمال"

"بل أقول لك بأنني ربما كنتُ أكثر تطرفاً من الأستاذ قصي، وأكثر تطرفاً مما بدوت وأنا أناقشه من هذه الناحية. لا! لن أقبل بأن أتورط بامتداح أي عمل مناقض لمسلماتي الوطنية. أنا مستعد، وأقولها بوضوح، لإسقاط أي عمل من هذا النوع. أنظر إليَّ مثلاً. هل ذهبت إلى الأدب لاستعراض ما أملكه من مفردات اللغة، أو للإتيان بمعجزات بلاغية لم يأتِ بها أحد قبلي؟ بالطبع لا، فالمعجزات البلاغية قد ولى زمانها واستنفدت أغراضها وربما إمكانياتها، ونحن جميعاً لا نبدو إلا أطفالاً صغاراً أمام تلك الأهرام من الأعمال الأدبية القديمة التي اجترحت معجزات لغوية حقيقية. إذن، لقد جئت إلى الأدب مزوداً بهدف فكري، هو الآخر ليس جديداً، هو الآخر ليس معجزتي الخاصة، لكنني أتيت لأضم صوتي إليه، خصوصاً في زمن الشك وإسقاط جميع البديهيات الذي نعيش فيه، في زمن فقدان الثقة. شعرت أن أي صوت إضافي هو صوت له قيمته، أما تلك المعاول التي تريد بإصرار لا أفهمه، أن تودي بكل آمالي بالحياة، فإنني مستعد، بإصرار أكبر، أن أحطمها"

"هذه هي الحكاية يا عزيزي، ولعل كلامي الأخير يتضمن جواباً على سخريتك من ديمقراطيتنا المدهشة التي تستثني المروجين للتطبيع. لا. اطمئن. ديمقراطيتنا المدهشة سمحت لهم بأن يقولوا ما يشاؤون، وبصوت مرتفع، بالرغم من أنه لا توجد ديمقراطية في العالم تسمح بنظم قصائد الغزل للأعداء، وهذه الديمقراطية المدهشة التي تسخر منها، هي التي تسمح لي بأن أرفض ما ينتجون، وتسمح لناشر مثل الأستاذ قصي، أن يرفض بأن يزج باسم الدار التي أنشأها، في أعمال تناقض الهدف الذي أنشأها من أجله. إنك تتصرف بسخريتك هذه وكأنك تفهم أن الديمقراطية يجب أن تدفع بحزب ماركسي، مثلاً، لأن يصدر بياناً يتغزل فيه بالشركات متعددة الجنسيات، رغم أن الديمقراطية هي بالضبط، أن يقارعها"

-١٠-

"أنت تتذمر من اسمك وتقول إنه يذّكرك بالتراث، أليس كذلك؟ لكن له على الأقل ميزة يشترك بها مع اسمي. اليوم، كنت أسير في الشارع، فنادى شخص ما: أحمد، فإذا بأكثر من عشرة أشخاص يلتفتون إلى مصدر الصوت! أنا وأنت لن نضطر للالتفات إلا إلى من يناديا فعلاً، فمن النادر أن تجد في المكان نفسه أكثر من شجاع واحد، أو قتيبة واحد"

"لكن اسمي سبب لي في بعض الأحيان ارتباكات صغيرة، كما حدث منذ أشهر قليلة، حين حاولت أن أقيس مدى معرفة الناس بي بعد نشر روايتي الوحيدة بسنة. كانت تسكن في قبو هذا البناء امرأة وحيدة في ذلك الوقت، وكانت تستقبل في بيتها رجالاً متعددين ومختلفين إلى درجة يصعب حصرها. تذمر الجيران من الوضع، وخافت الزوجات على أزواجهن من إغواء جمالها، فاتصلت واحدة منهن بالشرطة في إحدى الليالي، وطلبت منهم الحضور لمداهمة هذا المنزل المشبوه. حين جاءت الشرطة، قال رجالها إنهم لم يجدوا في المنزل أية شبهة، وأرادوا محاسبة التي اتصلت بتهمة إزعاج السلطة، فلم تعترف أيٌ من نساء البناء بأنها المتصلة. كنت أتدخل بكثرة لحل المشكلة، فسألني الضابط متأففاً بعدما ضاق ذرعاً بي: من أنت حتى تتدخل بالمسألة إلى هذا الحد؟ قلت له مبتسماً واثقاً أنني سأحسم الأمر بمجرد ذكر اسمي: أنا شجاع فارس. فابتسم الرجل، وهز رأسه عدة مرات، فسألته: عرفتَني؟ أجاب: لا. لكن اسمك غريب جداً. شجاع وفارس أيضاً. كيف ركبتَه؟!"

"طبعاً خوف النساء على أزواجهن كان له ما يبرره. ففي إحدى المرات، كان معظم سكان البناء في سهرة عند العميد أمجد، حين ثار نقاش طويل حول الإخلاص الزوجي. اقترحت إحداهن أن تقيس المسألة على الموجودين، فأتت بأوراق ووزعتها على الرجال طالبة منهم الإجابة، دون توقيع، على السؤال التالي: هل خنتَ زوجتك ولو لمرة واحدة؟ لعب الرجال اللعبة مسرورين، إلى أن اختفى سرورهم بالكامل حين ثبت أن الجميع بلا استثناء قد كتبوا: نعم. كان كل منهم يستعد لأن يقول لزوجته بأنه هو ذلك الوحيد الذي كتب: لا. كانوا جميعاً يضعون ثقتهم، على الأقل، بالدكتور فايز، الذي كنا مستعدين أن نقسم أنه لم يفعلها، لكن الظن خاب، وقد كانت هذه هي المشكلة الأولى التي تثور في منزل الدكتور فايز، والمشكلة الألف في بيوت الآخرين، لكن نائلة تمكنت من الضغط على نفسها، والتسامح مع زوجها، الذي أقسم لها ثلاثاً أنها كانت مرة واحدة حدثت تحت تأثير ضغط نفسي هائل، وإغراء لا يقاوم، وأنها لن تتكرر مهما جرى"

"لو كنتَ موجوداً يا قتيبة، كنتَ ستكتب: لا، وكان ذلك سيكون صادقاً حتماً. أنت مضمون من هذه الناحية. تخون زوجتك؟ هذا مستحيل. المرأة لا تعنّ على بالك أبداً، فكيف إذا تطلب الأمر منك مغامرة غير مضمونة العواقب إلى حد خيانة الزوجة؟!"

"المهم، دعك منهم، فها أنت تصبح شيئاً فشيئاً، رفيق كل أوقاتي. مرَّ الآن نحو أسبوعين على خلقي لك، يوم قلت لك كن فكنت، هذه المهمة النبيلة الجميلة التي يشترك بها الله والكاتب! هل رفعت حاجبيك بدهشة، أو حتى باستنكار؟ لا. لا. إنها دعابة لا أكثر. على فكرة، ما نوع علاقتك بالدين؟ هذه ناحية أخرى من شخصيتك لم نناقشها بعد. يبدو لي أن الجواب على هذه النقطة هو أكثر سهولة من الأسئلة السابقة التي حددنا فيها الكثير من صفاتك. الواضح، تقريباً، أن شخصية مثل شخصيتك، لن يكون لها كبير اهتمام بشؤون الغيب. لا أقصد أنك ترفض الدين، أو تقف منه موقفاً معادياً، لكنني أقصد أنك لا تعتبر مناقشة هذه المسألة أمراً مثيراً لاهتمامك، وإذا وجدت نفسك في قلب مناقشة صاخبة حولها، فأنت ستتجنب الدخول فيها، وستحاول أن تجيب إجابات غير محددة فيما لو اضطرّك أحدهم لأن تقول رأيك في الموضوع"

"ولكن من الداخل، هل أنت مؤمن؟ هل تؤدي طقوساً دينية معينة؟ وهل يمكن أن تكون متعصباً فيما لو واجهتَ موقفاً تُمتحن فيه من هذه الناحية؟"

"اسمع: واحدة واحدة. هل أنت مؤمن؟ يمكنني القول إن المسألة تحتمل الوجهين، لكنك، في الحالتين، لن تعتبر إيمانك أو إلحادك نقطة محورية في شخصيتك. أنت رجل باحث عن التقدم وعن سيادة العقل، ولن ترغب بأن تضيّع وقتك في إثبات وجهة نظرك مهما كان نوعها. أنت قد تكون مؤمناً دون تعمق كبير، ودون التزامات محددة، مما يجعلك لا تمانع في أن تخالف بعض الأحكام أحياناً، كما قد تكون ملحداً، دون أن يعنيك أن تسخر من إيمان الآخرين أو تحاول إقناعهم بأنهم على خطأ. أي أنك رجل يحتل الدين عنده مرتبة متأخرة من اهتمامه، سواء وافق على التسليم به أم لم يوافق"

"كنت أقول لك واحدة واحدة، فإذا بي أجيب عن الأسئلة كلها دفعة واحدة. أنت إذن، لا تؤدي طقوساً دينية، ولا يمكن للتعصب أن يجد سبيلاً إليك. هذه مسألة يسهل حسمها"

"يبدو لي أنه من السهل في الوقت نفسه، أن أستنتج أن علاقتك بالسياسة شبيهة بعلاقتك بالدين. إنها في أواخر سلم اهتماماتك. في هذه، أنا لست معك، لكن هذا شأنك، فأنت في تصوري رجل مخلص لبلدك بصورة شبه آلية، وبدون الكثير من العواطف، وهذا يجعل منك مخلصاً للوضع الذي وجدت نفسك فيه، دون تساؤلات عن مدى استحقاقه لإخلاصك. هل فهمتني؟ لأوضح لك أكثر: لنقل إن موضوع تخصصك العلمي هو موضوع عسكري، ولنفرض أنك تواجه حالة حرب، كالحرب العالمية

الثانية مثلاً، مما يتطلب منك أن تضع جهودك كلها في خدمة بلدك. أنت إذن، ستضع هذه الجهود في خدمة بلدك، وبكل إخلاص، سواء كنت تحت قيادة الغرب، أو الشيوعية، أو حتى النازية. إذا سحبنا هذا على الوقت الحاضر، نصل إلى نتيجة تقول إنك عربي مخلص بالصدفة فقط، فقد كان من الممكن جداً أن تكون إسرائيلياً مخلصاً!"

"يا إلهي! إلى هذا الحد يا قتيبة؟ لقد خيبتَ أملي. أنت إذن ترفض المسؤولية الفكرية والأخلاقية لرجل العلم. إنه رجل علم وحسب. هل سمعت بفعنونو؟ خسارة أنك لم تسمع به، أو أنك لم تكن لتفعل ما فعله لو كنت مكانه، فاضحاً عدوانية مجتمعك، رغم أن ذلك كان سيجرك، كما جره، إلى قضاء عمرك خلف القضبان. الوطن يا قتيبة يؤخذ بالاختيار لا بالوراثة. أنت ستحمل البطاقة الشخصية لبلادك بالوراثة. أعرف ذلك، لكن انتماءك للوطن ينبغي أن يكون اختياراً. هل تفهمني جيداً يا قتيبة؟ لقد قرأت مرة غربياً يقول: لكل إنسان في هذا العالم وطنان: وطنه وسورية. هذا رجل غربي! تصوّر! أما أنت، فإنك لا تجد ما يضطرك لاتخاذ أي موقف عاطفي انفعالي من بلادك"

"أتعرف أنك رجل مضجر؟ ليست لك مشاكل عاطفية ولا دينية ولا سياسية! عمَّ سأكتب في حياتك إذن؟ يبدو أنني أسأت اختيارك. هل أخلق شخصية أخرى، أم أعدّل بعضاً منك؟ أم أجعل روح دمشق تنهض لمقارعتك، حتى تهزمها أو تهزمك؟"

-١١-

"اسمع قتيبة. لقد غيّرت رأيي بمشروع الرواية جملة وتفصيلاً! نعم. نعم. لا تستغرب. يحصل هذا معي كثيراً. أبدأ وأنا أريد الكتابة عن موضوع محدد، ثم تفاجئني الشخصيات التي أصنعها بأنها مناسبة تماماً لموضوع آخر، فأستأذنها، وآخذها إلى أجواء وظروف ومواقف أخرى"

"ثم إن أمراً تافهاً جرى معي اليوم، جعلني أعيد النظر بموضوعك. كنت أسير في الشارع، فلمحت من بعيد شخصاً أعرفه معرفة سطحية جداً، لكنه كان قد قرأ روايتي الأولى، وقال أمامي بأنها خلبت لبه، وغيّرت حياته وكثيراً من أفكاره. المهم، لمحته اليوم دون أن يراني، فضبطته وهو ينكش أنفه! ستسألني عن علاقة هذا بذاك، مع أنني أعتقد أن العلاقة واضحة جداً، وكان عليك أن تستنتجها بنفسك. مع ذلك، سأجيبك. قلت في نفسي بعد أن رأيته، إن روايتي لا تساوي ثمن الورق الذي كُتبتْ عليه، لأنها، إن كانت لم تستطع أن تجتث من نفس هذا الرجل، الذي ادعى أن حياته وأفكاره قد تغيرت بسببها، عادة قبيحة إلى هذا الحد، فإنني لم أفعل أي شيء"

"طبعاً أنا لم أتحدث في روايتي عن موضوع نكش الأنف! لا. روايتي كانت تدور حول قضايا أكثر أهمية بما لا يقاس، لكنني لا أفهم كيف يطالع المرء الأدب، ثم يبقى غريباً عن الحضارة. هل تعتقد أن الحضارة هي هاجسك وحدك؟ أو إنها هاجس رجال العلم فقط؟ لا يا صديقي. الحضارة ليست مجرد علوم وتقنيات، بل إنها أسلوب حياة متكامل. على كل حال لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أصادف فيها حالات تخيّب أملي بقراء روايتي الذين كنت أظن أنني أحاول أن أدفعهم نحو اكتشاف أفضل ما عندهم. فمرة، كان عندي جار لي جاء خصيصاً ليعبّر عن إعجابه بالرواية، وحين همَّ بالمضي، فتح النافذة ونادى بأعلى صوته:

— أبو أحمد.

رفعت حاجبيَّ باستغراب. كان هو من يلّقب بأبي أحمد. نظر إليَّ الرجل، وابتسم، وعاود النداء مرة أخرى، فجاء عبر النافذة المقابلة صوت زوجته:

— نعم. نعم.

سألها عن الغداء، أو ما شابه ذلك، ثم أغلق النافذة من جديد. كان قد لاحظ دهشتي، فقال مبرراً دون أن أسأله:

— تعرف يا أستاذ. اسم المرأة، يعني، لا يجوز...

عجبك يا قتيبة! تعجبه روايتي ويتأثر بها، ثم يقول إن اسم الزوجة عورة عليه أن يخفيها. نسيت أن أسأله في حينها أن ماذا عن صوتها؟ لقد ردت عليه بصوت مرتفع سمعه معظم الجيران. أية فضيحة هي هذه إذن؟!"

"هذه واحدة، أما الثانية فقد أتت من شخص آخر، وأيضاً قارئ معجب لي، كان يتحدث عن زوجته. كان يقول إنها نحيلة جداً، رغم أنها تأكل قدر ما يأكل، هو السمين جداً، بثلاث مرات. ثم قال بجدية:

— يا جماعة، سمعت أن من يكون بهذا الشكل، يكون كذلك لأن ملائكته تأكل معه.

انفتح فمي، وقفز حاجباي، وسألته:

— كيف يعني؟

قال:

— يعني أن ما تراها أنت وهي تأكله، لا يذهب كله إلى جوفها، بل تشاركها به ملائكتها، فلا تسمن.

— هكذا؟

— نعم.

أما الثالثة يا عزيزي فقد جاءتني من سيدة لم أكن أتوقع منها ذلك على الإطلاق. كانت مثقفة، وابنة للعصر، وكانت هي الأخرى قارئة معجبة بروايتي، لكنها في وقت ما طُلقت من زوجها، فأخذت تؤكد أن سلفتها هي التي سحرت زوجها لكي يكرهها حتى تتخلص منها!"

"أستطيع أن أخبرك كذلك عن صبية لا تجدها إلا برفقة كتاب، ومع ذلك فهي تشترط من عريس المستقبل أن لا تقل ثروته عن رقم معيّن حددته بدقة، وعن أخرى لمحتني أحمل مسرحيات لسعد الله ونوس، فطرحت سؤالين في غاية الخطورة: أولهما عن السبب الذي يجعلني أقرأ هذه المسرحيات في كتب بدلاً من جلبها على شرائط فيديو، والثاني عما إذا كانت تلك المسرحيات مضحكة!"

"يدفع بي ذلك، في كثير من المرات، إلى سؤال صغير، لكنه لا يلبث أن يكبر ويكبر حتى يغطي صداه على أي صوت آخر. أقول: ماذا أفعل؟ ما معنى أن أكتب؟ أية جدوى من كل ذلك؟ الناس تقرأ كل ذلك، ثم تعود لتمارس الحياة بالطريقة نفسها. أعرف أن الأمثلة التي ذكرتها لك قبل قليل ثانوية، لكن هذا ليس كل شيء على أية حال. الناس تقرأ والأمة تتراجع. الناس تقرأ والحب يتحول إلى سلعة. الناس تقرأ والهزائم تنهمر علينا من كل الجهات. الناس تقرأ والوطن يصبح أصغر. الناس تقرأ والفساد

يـزداد. الـناس تقـرأ وضـوء الشـمس يصـبح باهـتاً أكثر فأكثر. الناس تقرأ والمساحات الخضراء في أرضنا وأرواحنا تنكمش"

"إذن بـاطل الأبـاطيل؟ أي إحـباط وأي عـبث، إن كـانت هـذه هـي الحقيقـة؟ هل هذه هي الحقيقة يا قتيـبة؟ مـاذا لـو واجهت هذه الحالة، من موقعك العلمي؟ أنت مثلاً أستاذ جامعي، تفني روحك وأنت تشرح لطلابك تلك الرموز والنظريات المعقدة، لكنك تكتشف أنهم، جميعاً على وجه التقريب، ينتظرون الـتخرج، مـن أجـل أن يزيـنوا غرفهم بالشهادة، ثم يبحثوا عن استثمار هذه الشهادة حيث تدر عليهم أكثر ما يمكن من المال، وليس حيث تريد أنت، حيث التقدم ومواصلة البحث والدراسة"

"الـبحث! من يفكر بذلك الآن؟ التقدم! أي وهم. كلنا نريد أن يواصل الآخرون جهودهم وأبحاثهم، من أجـل أن نشـتريها جاهـزة بحفنة من الذهب المختلف الألوان، والذي نترك، للآخرين أيضاً، أن يدلونا كيف نخرجه من أرضنا!"

"هـل كـل مـا نحاولـه يـا قتيـبة لا يـزيد عن مطاردة السراب؟ هل كله وهم؟ أكاد أتحدث مثل الأستاذ عدنـان، ذلـك الصـحفي الـذي ألـتقيه في المقهى، والذي ما انفك يؤكد أن لا شيء من قيم الخير في هذا العـالم سينتصـر، وأنـه، بالتالي، لا جدوى من الكفاح والتعب. لكن الرجل تجاوز الستين سنة، ثم إنه يمـلك تـبريراً لموقفه بأن يحيل كل مشكلة إلى الإمبريالية. يُخيَّل إليَّ أنه يتهمها حتى في مسألة طلاقه! أمـا أنـا، فـلماذا عـليَّ أن أصل إلى هذا السراب وأنا لا زلت أتمتع بالحيوية والأمل. رغم ذلك، أجد في كثير من الأحيان أنه على حق. أتساءل: ألم يكن بإمكان كتابات الأدباء والمفكرين، وجهود العلماء، أن توقـف، ولـو قـليلاً، مـن هـذا الانحـدار المخيف نحو القاع، الذي نتهاوى إليه جميعاً؟ كيفما نظرت يا قتيـبة سـتعاين هـذا الانحـدار. هـناك مـثلاً الصهيونية التي تتقدم باستمرار في معركتها معنا تاركة إيانا نـتقهقهر إلى الخـلف. هناك التخلف. هناك الارتداد إلى العصور السالفة. هناك...أو لا. لا داعي لهذه. هـناك دولـة كـبرى تتحكم بمصائرنا دون أن يكون بإمكاننا أن نطلق بيان استنكار لذلك. هناك شركات كبرى تحل شيئاً فشيئاً محل الأوطان. هناك من ينبش في القمامة بحثاً عن لقمة العيش..."

"مـاذا أقـول؟ هـل أسترسـل في هـذا الوصـف المحـزن؟ ومـا الفـائدة؟ سأصـبح مجـرد بكّاء نداب آخر، وسيزداد واحداً، عدد الذين يجعلون الدنيا ظلاماً من حولنا"

"أواسـي نفسـي أحيانـاً، وأقـول إن الانحـدار ربما كان مخيفاً أكثر، لولا تلك الجهود النبيلة. لا أدري مدى صحة هذا الكلام، خاصة أنني لا أتصور انحداراً أكثر سرعة من هذا"

"أواسـي نفسـي في أحيـان أخرى بأن أقول إن جهودنا تحتاج إلى وقت طويل، طويل جداً، حتى تؤتي ثمارهـا. ربمـا كـنا أنـانيين قليلاً، نريد أن نزرع، وأن نحصد النتائج في الجيل نفسه. قد يكون هذا غير

واقعي، وقد يكون نفض هذا الغبار الكثيف محتاجاً لجهد جيلين أو ثلاثة. لا أدري. أشعر بالتشتت الآن. لكنني دائماً أتجاوز هذه الحالة وأعود إلى الأمل، إلى الحلم، إلى اعتناق المستقبل. دائماً هناك غد، وما دام الغد موجوداً، ومجهولاً، إذن فلنعتقد أنه سيكون أفضل، ولنعمل من أجل ذلك"

"لكنني، رغم ذلك، أعود إلى هذا السؤال البسيط: من هو الرابح في الصراع الأزلي الأبدي بين الجمال والقبح؟ ويدوي في داخلي جواب وحيد على الدوام. جواب يبعث على اليأس. نعم. بالضبط. إنه القبح"

"لا! لا تشكّل الومضات الصغيرة للروح الإنسانية المتألقة، للفن، للأدب، للحب، إلا لحظات مضيئة وسط ظلام دامس. ربما كانت هذه اللحظات هي ما يجعل الحياة جديرة بأن تُحيا، لكنها ليست كثيرة. إنها انتصارات في جولات صغيرة، أما النصر في المعركة، فهو للقبح"

"هل أقرأ لك ما كتبتُه على ورقة خاصة في لحظة يأس قبل ست سنوات. اسمع:

(ثمة في هذا العالم وهمان...وحقيقة واحدة.

وهم جنة الله في العلا، الذي يندفع وراءه أولئك الذين يأملون بالسعادة خارج هذه الدنيا، في مكان آخر لا يعرفونه ولا يعرفون كيف يصفونه، لكنهم يؤمنون من كل قلوبهم، وبكل ثقة، أنه موجود، وأنه في نهاية المطاف ينتظرهم، ليقدم لهم ما عجزوا عن الوصول إليه في هذا العالم المادي. كان هذا وهمي الخاص، أنا أيضاً، في السنوات العشرين الأولى من عمري.

ووهم جنة الإنسان على الأرض. ذلك الوهم، الذي يدعي زوراً أن العدالة التامة يمكن أن توجد في هذا العالم، وأن الإنسان الحر، الكريم، المرفوع الرأس، يمكن أن يعيش فوق هذه الأرض، بين أناس يشبهونه، أحرار، كرماء، مرفوعي الرأس. كان هذا أيضاً، وهمي الخاص في السنوات العشر التالية من عمري، أي إلى ما قبل أيام قليلة.

وثمة حقيقة...

حقيقة الغابة...

حقيقة القوة والجبروت...

حقيقة السيف والرمح، لا القرطاس والقلم.

والحقيقة أكثر وفاء من الأوهام، تعطي أتباعها بقدر ما يعطونها. تمنحهم أن يصيروا سادة، وتترك أتباع الأوهام في خانة العبيد.

وأنا...شجاع فارس...الطبيب السابق...ابن الثلاثين عاماً...الذي حلم أحلاماً كبيرة بأن يهز العالم من أساسه حين كان تحت رحمة الأوهام...أعلن في هذه اللحظة، كفري بالأوهام، واعتناقي للحقيقة.

أعـلن ذلـك وأنـا في كـامل قـواي العقـلية، وأتحمل المسؤولية وحدي عن إعلاني هذا، المسؤولية المعتبرة شـرعاً وقانونـاً. نعـم، أعـتقد أنهم يقولون ما يشبه ذلك حين يرغبون بالإعلان عن أشياء جليلة إلى هذا الحد.

صحيح أنني عشتُ لحظات عظيمة من الجمال.

صحيح أنه في البدء كانت نجوى...

وفي النهاية كانت نجوى...

لكن ماذا يهم؟

باطل الأباطيل...

كل شيء باطل...

ولا يدوم إلا وجه الحقيقة ذو الجلال والإكرام.

وتبقى مدينتي مدينة للغبار.

لقـد كسـاها الغـبار مـن كـل الجهـات، وتقاعس أهلها عن أن ينفضوا عنهم، وعن كاهل مدينتهم، هذا الغبار.

غابة...

نعم...

هذا هو اسم الحقيقة...

آلاف من السنوات مرت...

منجزات عظيمة: ثقافة، علوم، تكنولوجيا...

ورغـم كـل شـيء، في الـبدء كـانت الغابـة، وفي النهاية ستكون الغابة، ولا توجد بين الغابة والغابة إلا غابة...

وليركب ماركس وأمثاله من الواهمين رؤوسهم ما شاؤوا...

وليمـلؤوا الدنيـا ضـجيجاً حـول العدالـة الآتيـة لا محالة، وحول حتمية الانتقال إلى الاشتراكية (أنظروا بربكم إلى "حتمية" هذه)...

فليسوا في النهاية أكثر من حفنة من الواهمين...

حـين كـنت واهمـاً مثـلهم، كـنت أغـلق التـلفزيون بمجـرد وصول النشرة إلى تلك الفقرة المتعلقة بأسعار العمـلات والأسـهم. لم أفهـم أبـداً لمـاذا يتراقـص هذا اللعين، داو جونز، وشقيقه الأكثر مكراً، نيكاي، صـعوداً وهـبوطاً في حركات بهلوانية غير مسلية على الإطلاق، ولا كيف انهارت عملة بلد ما، أو كسب

أحدهم ملياراً من الدولارات في أسبوع واحد، لكنني كنت أحدس بشكل عفوي، أن ثمة آلاماً لا تحصى قد وقعت نتيجة ما يجري.

بعد الآن لن أحدس.

سأفهم تماماً تلك الأشياء.

فاسم الحقيقة: غابة، هذا حسن، لكن الدخول في ملكوتها لا يأتي هكذا، مجاناً.

يجب أن يعرف المرء الوسائل والدهاليز.

يجب أن يخشع أمام الدولار ويفهم قوانينه.

تفو!

غابة...

ومنها لا يُسمع إلا صوتان...

صوت لهاث مجنون مستميت...

وصوت أنين موجع مفجع...

سأتوقف عن الأنين، وسأعدو خلف اللاهثين، وألهث مثلهم...وسأسبقهم جميعاً إلى الحقيقة.

حقيقة الغد ستكون بين يدي شجاع فارس.

لا يحتاج الامر إلا القليل من الانتظار...

فالمسألة تحتاج فقط إلى تربية بعض الأنياب، الأسنان، الأظافر، وما يشبه ذلك من عدة القتال.

سأحسن رعاية هذه الأشياء، ثم أعود.

انتظروني جميعاً أيها البكوات.

أوكي؟

أنا قادم إليكم بأسرع مما تتصورون، وسأسرق منكم مملكتكم، بعد أن أتعلم منكم، ومنكم بالذات، كيف تُساد الممالك.)

"أتعرف يا قتيبة لماذا كتبتُ هذه الورقة؟ كنت في ذلك الوقت قد عاينت هزيمة قاتلة لرجل نبيل أمام مملكة المال والأعمال. شعرتُ في حينها بيأس جارف اجتاح روحي وحولها إلى سواد كالح، لكنني اكتشفتُ سريعاً عجزي التام عن تنفيذ ما أعلنتُه في هذه الورقة، فذيلتُها بملاحظة:

(عذراً أيها السادة. ها أنا أرفع يديَّ وأعلن باستسلام: لن أعرف أن أدخل معركتكم.

سأرحل عنكم وأدعكم تستمتعون باللهاث، سأغادر عالماً يغتال البراءة، ويقدّس الحقد، ويسجد أمام المال. لن أستطيع أن أتعلم ذلك، فخير لي أن أرحل وأغادر لعبة لا أتقنها.

استمتعوا! استمتعوا بأصنامكم وسيوفكم. لم يكن عليكم سوى أن تتركوا ذلك الرجل يهنأ بأطياف الزهور والشمس والطفولة. لكنكم لم تفعلوها، بل صممتم: إما أن تدخل المعركة أو أن تغادرها.

بالنسبة لي، هاكم قراري: سأغادرها، فكن حنوناً أيها الرب مع المجانين من أمثالي. هبهم عضلات مفتولة وسيوفاً .. وقلوباً لا تعرف الحنين .

وداعاً أيها السادة . ورغم كل شيء ... أشفق عليكم ، وأحبكم.)

"نعم. كما استنتجتَ بنفسك يا قتيبة. كنتُ قد قررتُ الانتحار. أستطيع أن أرى استغرابكَ بوضوح. أسمعك تسأل: "كل هذا من أجل مأساة تتعلق بشخص آخر؟"، لكن يا عزيزي، افهمني. المصادفة وحدها هي التي جعلت ذلك الشخص هناك، داخل معركة لم يخترها ولم يُعلن رغبته في الدخول إليها. كان من السهل تماماً على مصادفة أخرى أن تضعني مكانه. قررت ألا أسمح للمصادفة بأن تقرر ذلك. سأقرر بنفسي أن أنسحب من الغابة قبل أن تطالني وحوشها المفترسة"

"جنون؟ بالضبط! هذا ما قلتُه أنا أيضاً، ولذلك تراني لا أزال على قيد الحياة، بل على قيد الحلم. سأحلم وأحلم وأحلم، وستبقى مملكة الجمال الصغيرة، المهزومة دائماً، مملكة جديرة بالبقاء من أجلها وبالدفاع عنها"

-١٢-

يستيقظ، شجاع بعد حلم بنجوى، ليجد روحه أكثر خفة، حتى إنه شعر بحركتها بين ضلوعه، وسمع حفيف أجنحتها وهي ترتطم بقلبه، فتشعل فيه الحنين.

لا يـرغب بمغـادرة السرير. يتمسك به وكأنه يتمسك، بهذه الطريقة، بوقائع الحلم. لا يريدها أن تفلت مـنه، ويسـمع من مكانه هدير أمواج بحرية. أهذا هو الصوت الذي تسمعه هي، حين تستيقظ هناك، في "بيتها المضوي عالبحر".

رآهـا مـرتدية فستاناً أبيض اللون. لطالما قال لها إن الأبيض يناسبها. كل شيء، في الحقيقة، يناسبها، لكـنه كـان يشعر أن الأبيض يعكس نقاء روحها بالشكل الأنصع. كانا يقفان في مكان لم يستطع تمييزه، لكـنه مكـان مـزدحم بالأضواء والناس. كان يبدو مذهولاً بلقائها. قال لها إنه يريد أن يراها على انفراد، فابتسـمت تلك الابتسامة الآسرة نفسها، وفكرت قليلاً، ثم هزت رأسها موافقة. هرب منها للحظات إلى مكـان قـريب. كـان منفعلاً بشدة، وأراد أن يهدأ قليلاً قبل أن ينفرد بها. حين عاد إليها، وجدها أكثر تألقـاً. كانت الأضواء الباذخة في هذا المكان الغريب، تترك الجميع، وتنعكس على وجهها وحدها، رغم أن وجهها لم يكن ليحتاج لأي نور خارجي حتى يبدو مشعاً متألقاً. غادرا المكان، وهو ينظر إليها طيلة الوقـت، غير مصدق أنها معه مرة أخرى، وأخذا يسيران في شوارع لا يعرفها دون أن يتبادلا أية كلمة، لكـنه مـدَّ يـده، ولامـس يدهـا بـتردد، فأبعدت يدها بسرعة، ونظرت إليه نظرة تأنيب مبتسمة. انقطع المشـهد فجـأة، لـيجد أنهمـا أصـبحا في مكان مكشوف، شارع أو حقل أو حديقة، لم يكن الأمر واضحاً تمامـاً، لكنه كان متمدداً على مقعد حجري، وكانت هي جالسة قربه. كان هناك أناس كثيرون يمرون، لكـنهم لم يـنظروا إليهمـا. "هل كنا مجرد روحين، طيفين، حتى استطعنا أن نتجنب العيون المتطفلة؟" كـان الآن يمسـك بكلـتا يديها، يقبل أصابعهما واحداً واحداً، فتعود إليه رائحة عتيقة عتيقة، لا يدري مـتى عرفها، لكن ذلك كان بالتأكيد في السنوات الأولى من عمره، وتظل هذه الرائحة تعاوده كلما حلّقت روحـه إلى الأقاصي العليا. كانت تنظر إليه وهو يقبّل أصابعها بهذا الشغف، وتبتسم بتلك الطريقة التي تغسله غسلاً بأمطار من حنان. ثم انحنت قليلاً، وأسندت رأسها إلى صدره، وقالت:

— أبعد كل هذه السنوات؟

"هـو صـوتها أخـيراً إذن. ذلـك الصـوت الـذي سمعـته مـرات دافـئاً عذباً، وسمعته مرات أخرى قاسياً حاسماً، يأتيني الآن وهو يذوب حباً"

مدَّ يديه، وأخذ يتخلل شعرها بأصابعه، ثم رفع رأسها قليلاً. كانت عيناها دامعتين. قالت:

— أتعرف؟

نظر إليها متسائلاً دون أن ينطق، فهمست:

— أحبك.

في تلك اللحظة، استيقظ مباشرة. المألوف بالنسبة له، أن يستيقظ بصعوبة بالغة، أما اليوم، فقد استيقظت حواسه كلها دفعة واحدة، وكأن يداً حبيبة كانت تربت على كتفه لإيقاظه. كانت كل ذرة من هواء الغرفة تردد تلك الكلمة: "أحبك". تمسك بالوسادة، وبشرشف السرير، محاولاً التمسك بتلك السكينة، تلك النشوة، التي اجتاحت روحه.

"أبعد نجوى يكون لا جدوى؟ أتكون عينا نجوى في هذا العالم ثم أقول: عبث. باطل الأباطيل! كم عليَّ أن أكون متجمد الإحساس حتى أفعل ذلك"

"لعينيكِ كل حياتي وأعمالي، لعينيكِ كل صلاتي وإيماني، ففي عينيكِ وحدهما، تكمن كل آلهتي"

ينهض أخيراً، ويتجه إلى الدرج الذي يضع فيه أشرطته. يبحث عن واحد بعينه، وينسفح الصوت الملائكي القادم من العلا، ويعانق ذرات هواء الغرفة التي تحمل كل واحدة منها صورتها، وصدى كلمتها الأخيرة في ذلك الحلم الذي ودَّ لو لا ينتهي:

يا طير يا طاير على طراف الدني...
لو فيك تحكي للحبايب شو بني...
يا طير...يا طير...

وحياة ريشاتك وإيامي سوا...
وحياة زهر الشوك وهبوب الهوا...
ان كنك لعندن رايح وجن الهوى...
خدني ولنو شي دقيقة وردني...
يا طير...

"ثم ماذا يا نجوى؟ ماذا بعد؟ إلى متى ستسكنينني، ستحاصرينني، ستتدفقين كينبوع رقراق دائم التفجر من أعمق أعماق روحي؟ إلى متى ستظل تلك الشرفة التي استودعتُها وجهك وعينيك، وفية لي، كأنني ذو إرادة سرمدية لا ترد؟ أطل إليها، فتبتسم لي عيناك. حين كنتِ هناك، لم تكوني كريمة إلى هذا الحد. كنتِ تبتسمين أحياناً، لكنك كنتِ تعبسين في أحايين أخرى. الآن، ألمح من تلك الشرفة

ابتسامة خالدة لا تذوي. إلى متى؟ إلى متى هذه البهجة المؤلمة التي يثيرها انسياب روحك بين نافذتي وشرفتك؟"

"ألومكِ؟ ألوم نفسي؟ ألوم الظروف؟

الوقت لم يعد مناسباً لذلك. ربما أخطأنا معاً. ربما لم نكن في ذلك الوقت جديرين بأن نبني تلك العلاقة الخالدة التي كانت ستقوم بيننا. خربطة في التوقيت مرة أخرى، كما بالنسبة لكل شيء في حياتي. لقد ظهرتِ أبكر قليلاً مما يجب، وهذه الـ "قليلاً" كانت لها كلمة الحسم"

"نجوى. نجواي. نجوى الله!"

"أسأل نفسي أحياناً من أنت؟ ما أنت؟ ماذا كنتِ؟ أين صرتِ؟

من أنتِ حتى استطعتِ أن تفعلي بي كل ذلك؟ كان يمكن لتلك أن تكون حكاية حب صغيرة تكررت ألف ألف مرة قبل ذلك، لتنتهي في مرات كثيرة بالرفاء والبنين، وفي مرات كثيرة أخرى بالنسيان"

"إذن من أنتِ حتى استطعتِ أن تفعلي غير ذلك؟ لقد رحلتِ، لكنكِ مكثتِ. حاولت أن أقول لكِ ارحلي أخيراً واتركيني بسلام، ونجحت في ذلك في بعض الأوقات، لكنكِ تخلقتِ من جديد، وانبثقتِ متدفقة من داخل روحي، كأجمل عناصرها وأبهى ما فيها من جمال"

"يومها، فكرت. أبحث عنك من جديد؟ لن أجد صعوبة في العثور عليكِ بالتأكيد. ونبدأ من جديد إذن؟ كدت أفعل ذلك، لكنني في تلك الأيام بالذات سمعت أنك قد تزوجتِ. خربطة في التوقيت من جديد. رغم ذلك حاولت أن أخترع سيناريو يليق بفيلم عربي من الدرجة الثانية. أنتِ تزوجتِ لأنك تعذبتِ بما يكفي مع الحب، وكان أن قررتِ أنكِ بعد الآن ستفكرين بعقلك. بالنسبة لشاعرة مرهفة الحس، لا بد أن يخذلها العقل. إن المنطقة الأكثر تألقاً عندها هي القلب، لا العقل، وهكذا، ستفشل حين تعتمد على العقل. إذن، أنت بين يدي زوج لا يقدّرك جيداً. لقد خدعك بتغليف نفسه بقشرة لامعة من الأخلاق والشعر، لكنه نزع عن نفسه هذه القشرة بعد الزواج مباشرة، فتكشف عن إنسان قاسٍ لا يهمه من الدنيا إلا المال، وعن زوج أناني لا يفكر سوى بنفسه. لقد هزتكِ الخيبة، وها أنتِ في سريره تتأملينه وهو نائم. كل الناس تبدو وادعة عند النوم إلا هذا الرجل. إن قسوته بادية للعيان حتى خلال النوم، وها هي الدمعة تنساب على خدك، وتتمتمين: خسارة يا ... شجاع!"

"أية أوهام! لو تحققت، لكان على الفارس الشجاع الهمام أن يتحرك لإنقاذ حبيبته من تلك القسوة التي تدمر حياتها وأعصابها ببطء. يأتي الرجل ذو السواعد المفتولة، الذي يُفترض أنه أنا، ويخرج حبيبته من السجن، فترتمي على صدره، وتنظر إليه نظرة عاشقة استحقها أخيراً لأنه تصرف برجولة وشهامة، ثم تتدفق السعادة"

"هل هذا ما أتمناه في قرارة نفسي؟ إذن أنا عاشق لئيم، يستعذب تعاسة محبوبته من أجل أنانيته القاتلة. لا. لست كذلك، وكان أن قررت: لن أبحث عنكِ. لن أقف متفرجاً من بعيد على حبيبتي وهي تخرج من بيتها متأبطة ذراع رجلها. ثم ماذا لو رأيتها تخرج معه ضاحكة متألقة سعيدة؟ شيء ما فيَّ كان سيقول: رائع! إنها سعيدة إذن. وشيء ما آخر كان سيقول: وأسفاه. لقد نسيت شجاع إلى الأبد. اسمعي: لا أريد أن أرى هذا ولا ذاك. لقد رحلتِ، لا بأس، وسأكتفي منك بعد الآن بالذكرى، بالطيف، بالأيقونة. هكذا قلت في ذلك الوقت، وهكذا فعلت. جعلت من عينيك رفيقاً دائماً لحياتي. جعلت منهما أيقونة أصلي إليها، وأستمد منها مكافأتي وعقابي. إنها هي التي تقول لي: رائع يا شجاع، ما تفعله رائع. وهي نفسها التي تقول لي: خطأ. ما تفعله عيب وخطأ بكل المقاييس. وهكذا حدث أن صرتِ لي ضميراً لا مهادنة معه"

القسم الثاني

فكان

-١-

- الدكتور قتيبة مشهور، دكتوراه في الفيزياء النووية.

تقدمتُ مصافحاً، كانت يدي ترتجف. شعرت أنني لا أسيطر عليها بشكل جيد، لكن يبدو أن هذا لم يكن واضحاً للآخرين. أخيراً نجح الأمر، وإن كانت الثواني التي استغرقها قد بدت لي ساعات. صافحتُه قائلاً:

- أهلاً دكتور قتيبة. تشرفنا.

مد الدكتور قتيبة يده، فيما كان أنور يواصل التعريف:

- الدكتور شجاع فارس. شقيق سوسن.
- تشرفنا دكتور شجاع.

رد قتيبة مبتسماً بلباقة، مع قليل من دهشة لم أفهم سببها. جلس الجميع: أنور وسوسن وقتيبة وأنا. كنت تحت تأثير شعور قوي بالرهبة. كنت مأخوذاً. تساءلت في سري: "ما الذي يجري؟ قتيبة؟ إياه؟"

قال أنور مبتسماً:

- طبعاً هذا التعريف منقوص. كان عليَّ أن أقول "الدكتور سابقاً شجاع فارس".

رد قتيبة:

- والروائي حالياً. أليس كذلك؟

رفعت حاجبيَّ باستغراب، لكن أنور سبقني إلى السؤال:

- تعرفه؟

هز قتيبة رأسه مؤكداً وهو يمد يده متناولاً كوب العصير، وقال:

- قرأت روايته.

قلت:

- حقاً؟
- حقاً. ولماذا تستغرب؟

ابتسمت بارتباك، وقلت:

- المسألة تثير الاستغراب فعلاً. لم أكن أظن أن علماء الفيزياء النووية يهتمون بالأدب إلى هذا الحد.
- بالتأكيد. ليس جميعهم. بل يمكن القول إن غالبيتهم العظمى قد لا تهتم للأدب، لكن من ناحيتي، أنا مهتم جداً به.

قال أنور:

- ومـع ذلـك فالمسألة غريبة. أنت لم تعد إلى دمشق إلا قبل شهرين، ورواية شجاع صدرت منذ عام ونصف، كيف لحقت أن تسمع به وتقرأ له؟

- أنا لم أسمع به بعد عودتي. لقد قرأت روايته حين كنت لا أزال في فرنسا.

ضحك أنور وقال مداعباً:

- ما هذا يا شجاع؟ صيتك وصل إلى فرنسا دون أن نعلم؟

ضـحكنا. سوسـن أيضـاً شـاركت في الضـحك. "عظيـم. هـناك تحسن ملموس" فكرت وأنا أبذل جهدي لاسـتعادة توازنـي بعـد رهـبة المواجهـة الأولى مـع شـخص خيّل إليَّ أنه قد يكون بطل روايتي متجسداً أمامي. قال قتيبة:

- أنـت لم تعـرفني جيداً بعد يا أنور. لقد كنت أرسل في طلب كل جديد في الأدب السوري، لكنني نـادراً مـا طلـبت عمـلاً ثانيـاً لـروائي آخـر. شـجاع هو من القلائل الذين قررتُ أن أبحث عن إنتاجهم اللاحق.

ابتسمت بسعادة حقيقية، وقلت:

- شكراً دكتور قتيبة. شكراً.

- العفو. لا شيء يستحق الشكر. أنا لم أقل إلا الحقيقة.

نهض أنور، وتناول أول أكواب العصير الفارغة ليهم برفعها، لكن سوسن نهضت هي الأخرى وتناولتها مـنه مشـيرة إليـه بعيـنيها أن يـبقى مع ضيفيه. ابتسم لها بمودة دون أن يتمكن من إخفاء دهشته. عاد أنور للجلوس فيما كان قتيبة يتساءل:

- لكن "الدكتور" هذه جديدة عليَّ. دكتور في ماذا؟

أجبت:

- طبيب.

- وهل توقفت عن ممارسة المهنة؟

- لا. أبداً. لكنني لم أعد أوليها كامل وقتي واهتمامي. صار الأدب يشغل جل أوقاتي.

هـز قتيبة رأسه بطريقة تنم عن التفهم، لكنني لم أفهم منها تماماً تعبيراً واضحاً عن امتداح هذه الخطوة أو ذمها. قال أنور:

- بالمناسـبة شـجاع، أنـا لم أتعـرف إلى قتيـبة إلا مـنذ شهر واحد، وبالرغم من ذلك فهو أصبح من أقرب الأصدقاء إليَّ. هناك أمور كثيرة جمعتنا. لا شك أنك ستسعد كثيراً، أنت أيضاً، بمعرفته.

- بالتأكيد.

أجبته مبتسماً.

قال قتيبة:

- لكنه لم يخبرني بأنه صهر الروائي شجاع فارس. يبدو أنه لا يحب التباهي.

ضحكت وقلت:

- التباهي؟ شكراً على المجاملة. بماذا سيتباهى؟ بروائي لم يسمع به إلا بضع مئات رغم أنه يكتب بلغة يقرأها مئتا مليون؟

فكر قتيبة قليلاً ثم قال:

- ليس هذا هو المهم، في الوقت الحاضر على الأقل. المهم أنك تكتب بطريقة ممتازة، ومن يقصدك سيعثر عليك.

قال أنور:

- هذا واضح تماماً ما دام هناك من يرسل في طلب رواياتك إلى فرنسا.

هززت رأسي بشيء من الأسى، وقلت:

- أنا لا أتفق معك دكتور قتيبة. ما المهم إذن؟ ربما على المرء أن يسأل نفسه لماذا يكتب؟ ألست أكتب من أجل تحريك شيء ما في نفوس قرائي؟ من أجل الدفع نحو غاية ما؟ كيف سأصل إلى ذلك إن ظل حال القراءة على ما هو عليه؟ ما فائدة الصوت الذي لا يسمعه أحد؟

رد قتيبة:

- لا تكن متشائماً أستاذ شجاع. الكثيرون سمعوا صوتك حتى الآن، لكن الذين سيسمعونه في وقت آخر سيكونون أكثر دون أي شك. صوتك محفوظ في مكان جيد جداً. في أفضل الأماكن حسب اعتقادي. أمر مدهش أن تكون موجوداً داخل كتاب. إنك بذلك تتخطى الزمن، وتمنح نفسك فرصة مديدة عبر الزمن لأن يكون صوتك مسموعاً جيداً.

جاءت سوسن بفناجين القهوة ووزعتها وعادت إلى الجلوس. أشعلت سيجارة وارتشفت القليل من القهوة وقلت:

— أنا لست متشائماً. المتشائم لا يكتب أصلاً. حين ينعدم الأمل، يفقد المرء الرغبة بعمل أي شيء، فما بالك بالكتابة؟

رد قتيبة:

— عظيم. إذن عليكَ أن تكفَّ عن التفكير بهذه الطريقة، وتخبرنا عما تكتب الآن؟

"عنك".

نعم، كادت الكلمة تفلت مني بهذا الشكل، لكنني تداركت الأمر وقلت:

— لم أبدأ بكتابة شيء جديد بعد.

سأل قتيبة باستغراب:

— كل هذا الوقت؟ سنة ونصف مرت على نشر روايتك، أي أنك كنتَ قد أتممتها قبل ذلك بأشهر. سنتان دون أن تكتب شيئاً؟ ما هذا الكسل؟

"ها! إنه يمتلك روح الدعابة أيضاً"، قلت في سري وأنا أضحك. أجبته:

— أنا لم أقل إنني لم أكتب شيئاً. لقد مزقت ثلاث محاولات روائية خلال هذه الفترة.

هز قتيبة رأسه قائلاً:

— عظيم. المهم أن تكتب. هذا يدل على أنك تطوّر أدواتِك بشكل جيد، ويدل أيضاً على أنك تنقد نفسك بطريقة قاسية.

كنت أتأمله خلال حديثه وأنا أتساءل بإلحاح أين رأيتُه من قبل. نعم. بدا لي وجهه مألوفاً كثيراً، لكنني لم أعثر في ذاكرتي على أية نقطة ارتباط يمكنها أن تدلني على شيء أو مكان ما يمكن أن يكون على علاقة به. بادرني هو قبل أن أواصل محاولاتي:

— لكن أتعرف يا شجاع، أنا أشعر وكأننا التقينا من قبل. وجهك مألوف تماماً بالنسبة لي.

ابتسمتُ وقلت:

— كنت أفكر بالأمر نفسه تماماً. أنا أيضاً أشعر وكأنني أعرفك من قبل. هل التقينا قبل الآن؟

— لا أدري. لا أستطيع أن أتذكر.

وخلال محاولات التذكر اكتشفت أنه يبلغ الحادية والثلاثين من عمره، أي أن تقديراتي كانت في محلها بالنسبة لعمره، لكن هذا لم يفِد بشيء، إذ لم يعد من المجدي تذكر المدارس التي درسنا بها طالما أن الفرق بيننا خمس سنوات، أما الأماكن التي نتحرك فيها فلم تقدم هي الأخرى أية فائدة. قال قتيبة معلقاً:

— يا سيدي لا يهم. ربما لم نلتقِ من قبل على الإطلاق، لكن جميل أن نشعر وكأننا فعلنا.

ابتسمتُ مؤيداً، ثم دار حديث عادي قصير، فهمتُ من خلاله مسروراً أن سوسن قد تخلت عن فكرة السفر إلى الخليج، مرتكبة أول تنازل تقدم عليه في حياتها، مما يدل دلالة طيبة على أن بعض العواطف قد بدأت تأخذ طريقها إلى قلبها، أما بعد أن غادر قتيبة، فقد كان لديَّ سؤال ملح لأنور كان يشغل بالي. تساءلت إن كان قد أتى على ذكر قتيبة أمامي. كنت أسأل نفسي إن كان قد تحدث عنه

بطـريقة أوحـت لـي بخـلق قتيـبة الخاص بي بالشكل الذي خلقته به، لكنه أكد أنه لم يفعل، وأنه لم يـتعرف إلى قتيـبة إلا قـبل شـهر واحـد، وقـد كـان هذا كافياً تماماً لنفي ظنوني، لأنني كنت قد بدأت بصياغة الخطوط العامة لهذه الشخصية قبل زمن يزيد عن الشهرين.

-٢-

هـا هـا أيهـا الخـبيث. أنت موجود على أرض الواقع إذن. أنت رجل من لحم ودم، ولستَ بعد مجرد شخصـية روائيـة أشكلها كما يحلو لي. مبروك عليك يا سيدي. هذا حدث شبيه بالاستقلال. أنت الآن كائن مستقل عني بعد أن رزحتَ تحت استعماري قرابة الشهرين.

لكـن هـل أنـتَ فعـلاً هـو؟ اسمع: أنت تشبهه كثيراً: رجل علم، في الحادية والثلاثين من عمره، عائد للـتو من دراسته في الخارج. أليست هذه بعض الصفات التي نفختُها فيك؟ ثم الاسم. قلتُ لك سابقاً إنه مـن الصـعب جـداً أن تعـثر في المكان نفسه على أكثر من قتيبة واحد. صحيح أنه لا يمكن اعتبار المكان واحـداً، مـا بـين مخيلتي الروائية وبين منزل سوسن وأنور، إلا أنني أستطيع أن أضيف بأنه من النادر أن يواجـه المرء في حياته كلها أكثر من قتيبة واحد، هذا إن كان سعيد الحظ إلى درجة أن يواجه واحداً فقط!

هذه النقاط تؤكد أنك هو، ولكن ماذا عن الباقي؟

لا! لسـتَ هـو بالتأكيد. أنت تتساءل عن السبب الذي يجعل الأدب موجوداً، أما هو، فإنه أفضل منك بكـثير مـن هـذه الـناحية، بـل أفضـل مـن بعـض الذيـن يعملون بالأدب. إنه يرسل من غربته في طلب الأسمـاء الشـابة في الأدب السـوري. انتبهتَ جيداً؟ إنه لا يبحث فقط عن الأسماء العملاقة، أو الأعمال الـتي سـبق ونـالت الشـهرة. لا. إنه يريد أن يكتشف بنفسه، ويمتلك الوقت والصبر لكي يقرأ رواية قد تُثبت في النهاية أنها لا تساوي ثمن الورق الذي كُتبت عليه.

ثـم إنه يمتلك روح الدعابة، فها هو منذ اللقاء الأول يرفع الكلفة وينادي بـ "شجاع" مسقطاً العديد من الحواجز، ثم يسألني ببساطة قائلاً: "ما هذا الكسل؟"

صـحيح أنـني لم أتحـدث عن روح الدعابة الخاصة بك، ولا عن التزامك بالرسميات، لكن ما قلتُه عنك حـتى الآن يكفـي لإعطـاء فكـرة عن وجه شديد الجدية، لكي لا أقول إنه متجهم، وعن رجل لا تسقط منه كلمات :أستاذ" و"سيدتي" و"دكتور" إلا مع أهل بيته.

إذن أجبني بحق الله: هل أنت هو أم لا؟

لكـن...لكـن...لـماذا أسأل نفسي هذا السؤال بهذه الطريقة؟ الأمر عائد لي لتقريره. نعم. إذن اسمع يا قتيـبة. جوابي هو: نعم. نعم أنت هو. بالأحرى: نعم، سأجعلك "هو". لن أقول إذن جملة مثل: "أنت لا تحب الأدب أما هو فيعشقه"، بل سأقول: "أنت تعشق الأدب إذن! هذا مختلف عما توقعته عنك" يـبدو الأمر لي طريفاً. شخصياتي تنهض من الورق إذن وتصافحني متحدثة إليَّ بندية تامة، بل إنها لا تتورع عن انتقادي واتهامي بالكسل.

لا تفهم أن الأمر يشعرني بالإحباط. بالعكس. عليك أن تعلم يا صديقي أنني سعيد جداً بتحررك. سعيد جداً بخروجك من حبري وورقي إلى الحياة الحقيقة. أنت ستمنحني فرصة هائلة بعد الآن لكي أختبر ردود أفعالك بشكل غير افتراضي. المهم ألا تخيّب أملي. لا تنسَ أبداً أن أصل وجودك هو رواية. عليك أن تتحرك وتعيش بطريقة تجعل هذه الرواية جديرة بأن تُكتب. لا أريد أبداً أن أسمع عن موظف يخرج صباحاً ويعود ظهراً ثم يمضي وقته في الدردشة والتفرج على التلفزيون، ثم يتزوج وينجب أطفالاً ويعيش حياة بسيطة بلا تعقيدات أو عقبات. لن أقبل بأمر كهذا على الإطلاق. عليك أن تعيش ملحمة ما، وإلا فإن عملي مهدد تماماً. عليكَ أن تعيش مأساة، أو قضية كبيرة. دعنا نتحدث عن هذه الأخيرة، فمن غير الإنساني بعد أن أصبحتَ أنت إنسانياً بشكل تام، أن أتمنى لك المأساة. القضية إذن. ما هي قضيتك يا قتيبة؟ ما هي؟

-٣-

بعد مرور بعض الزمن على تلك المصافحة التاريخية (لا! لا أتحدث عن واحدة من تلك المهازل! أنا أعني فقط مصافحة الكاتب مع بطله)، توجهتُ إلى منزل قتيبة للمرة الأولى.

يمكنني باختصار أن أصف تلك الزيارة بعنوان يصلح أن يوضع كمانشيت صحفي من الطراز الأول: "سقوط جميع المسلمات"، ثم، في عنوان فرعي: "قتيبة يكشف عن وجهه الحقيقي أمام ذهول المحققين"

الأمر لم يبدأ بعد دخولي إلى بيته. لا! لقد بدأ وأنا أهم بضغط زر جرس الباب. لحظتها سمعتُ صوت صرخة من الداخل. إنه صوت قتيبة. كان يصرخ: "يا إلهي!" وفي اللحظة نفسها سمعتُ صوت ارتطام ما. أجفلت، وتراجعت لبرهة، لكنني عدت وضغطت الجرس، فأنا آتٍ إليه على موعد، ثم إن مشاجرة ما قد تكون جارية في الداخل، ولا شيء يحول دون الاعتقاد أنها مقدمة للملحمة، أو للقضية، التي على قتيبة أن يعيشها لكي يستحق أن يكون بطلاً لروايتي.

سمعتُ صوت خطوات مستعجلة، ثم انفتح الباب وظهر قتيبة. قال بانفعال:

- أهلاً شجاع. أدخل. أدخل.

كان يتقدمني إلى الصالة مسرعاً. أغلقت الباب ولحقت به وأنا أسأل:

- ما بك يا قتيبة؟ خيراً؟

- ضاعت علينا فرصة رائعة.

ولم يكد يتم جملته حتى صاح:

- جول. جول.

كان يقفز. دكتور الفيزياء النووية كان يقفز، بل إنه هجم عليَّ وعانقني.

- هدف يا شجاع. أخيراً هدف.

منتخبنا الوطني قد سجل هدفاً إذن في مباراة حاسمة. لكنني لم أستطع أن أخفي انزعاجي. ما دام مهتماً بمتابعة المباراة إلى هذا الحد، فلماذا يعطيني موعداً في الوقت نفسه؟

وكأنه قرأ أفكاري، برر دون أن أسأله:

- أنا آسف جداً يا شجاع. كنت قد نسيت تماماً موعد هذه المباراة حين ضربتُ لك موعداً. اجلس. اجلس.

تبخر انزعاجي، بل تحول إلى سعادة. يمكنني الآن أن أتابع المباراة معه. بالأمس، حين حدد بنفسه هذا الوقت للزيارة، شعرت بشيء من الإحباط. إنه يتعارض مع موعد المباراة الحاسمة، لكنني لم

أعترض. خجلتُ أن أقول لقتيبة إنني أفضل وقتاً آخر من أجل مباراة بكرة القدم. إنه لا يطيق هذه اللعبة كما افترضت، واعتذار من هذا النوع، ولهذا السبب "التافه"، كان سيترك تأثيراً سلبياً على علاقة كانت بالكاد قد بدأت.

كان لديَّ فضول شديد للتعرف على بيت قتيبة. أخذت أتابع المباراة برفقته، لكنني كنت أستغل الدقائق التي تخلو من خطورة اللعب لأتجول ببصري عبر ما استطعت التقاطه من الشقة.

وسريعاً، تهاوت مسلمات عديدة. فالكتاب المتروك على طاولة في الصالة مقلوباً بما يدل على الموقع الذي وصل إليه، هو ديوان شعري لنزار قباني، ومكتبة الأشرطة الكبيرة تنم عن اهتمام موسيقي واسع، وتتصدرها الأقراص المدمجة الخاصة بفيروز. لمحتُ أيضاً أم كلثوم وعبد الحليم وعبد الوهاب، كما لمحتُ وجوهاً شابة، وبعض الأشرطة الغربية.

أما المكتبة، فقد تمعنت في عناوينها حين نهض هو ليصنع القهوة بين شوطي المباراة. مجموعة كبيرة من الكتب العلمية باللغتين الانكليزية والفرنسية تشغل ثلاثة رفوف، أي حوالي عشرة بالمئة لا أكثر، من مكتبته الضخمة، أما الباقي فيمكن ضمنه العثور على كل شيء: الفلسفة والأدب والسياسة والدين والاقتصاد وعلم النفس...

قلت لقتيبة حين كان يضع القهوة على الطاولة بعد أن عاد بها من المطبخ:

— دكتور قتيبة...

لكنه قاطعني:

— يا شجاع. منذ اللقاء الأول صرت أناديك شجاع بدون رسميات، هل تريد أن تُشعرني بالذنب حين تحدثني بهذه الطريقة؟ هل تريد إشعاري بخطأي؟

ضحكت وجلست وأنا أقول:

— طيب. قتيبة، هل أنت مهتم فعلاً بالفيزياء النووية، أم أنه اختصاص فُرض عليك فرضاً؟

قدم لي فنجاني وهو يجيب باستغراب مبتسماً:

— فرض عليَّ؟ كيف ذلك؟ أنا يُفرض عليَّ شيء ما؟ أنت لا تعرفني إذن. أنا والحرية عشيقان لا يمكن الفصل بيننا.

مفردات غير متوقعة منه على الإطلاق. "الحرية"، "عشيقان". لا! لا! يبدو أنني كثير الإدعاء حين أزعم أنك هو.

أردف قتيبة:

— لكن لماذا تسأل؟

– كـنت أطالع العناوين الموجودة في مكتبتك. سألت نفسي متى تجد الوقت لهذا كله؟ أستطيع أن أقـول إن لـديَّ فكـرة عمـن يعمـل باختصاصك هذا بأنه لا يملك أي فائض من الوقت، بل إن الساعات الأربـع والعشـرين تبدو له قليلة جداً، وربما سأل نفسه لماذا على الإنسان أن يضيّع منها الكثير في النوم وتناول الطعام وما شابه ذلك.

ضحك قتيبة وقال:

– نعـم. إنني أسأل هذه الأسئلة حقاً. لكن ليس من أجل اختصاصي العلمي تحديداً. هذا يكفيه ما أعطيـه مـن وقـتي. إنـني أعطيـه عشـر سـاعات يوميـاً. لكـنني أريـد وقتاً أكبر للقراءة ولارتياد المسارح وصالات السينما والذهاب إلى حفلات موسيقية والدردشة مع ثرثار مثلك.

ضحك وهو يتأمل رد فعلي بارتباك، ثم قال:

– أرجو ألا تنزعج. أحب أن تكون العلاقة مع الأصدقاء مرحة.

أجبته مبتسماً:

– وأنا أيضاً، ويسرني أنك اعتبرتني واحداً من الأصدقاء.

– لكن انتظر الآن. لقد بدأ الشوط الثاني.

وانـتظرت. كـان أسـوأ مـا يمكـن افتراضـه بعـد ذلـك هو أن يخرج منتخبنا خاسراً من هذه المباراة، لأن ذلـك، بالإضـافة إلى الحـزن الـذي سيسـببه لـي، كان سيُفسد اللقاء. صار واضحاً لي أن مزاج قتيبة لن يسمح بأي حوار مفيد فيما لو هُزم المنتخب.

لحسـن الحـظ استطاع منتخبـنا تسـجيل هـدف آخر (ترافق بالطبع مع انفعالات قتيبة نفسها، وكانت حصتي قبلة جديدة منه)، وانتهت المباراة إلى فوزه. قال قتيبة مع انطلاق صافرة الختام:

– رائع. مبروك يا شجاع. سأجلب لك كأساً احتفالاً بالمناسبة.

"توقعـتُ مـنك ذلـك. ألم أقـل إنك قد تخالف بعض الأحكام أحياناً"، قلتُ في سري بينما كان ينهض. غـاب لدقـائق، ثـم عاد حاملاً صينية عليها كأسان وبعض الصحون الخفيفة التي يبدو أنها كانت معدة سلفاً. وضعها أمامه وجلس وأخذ يوزعها وهو يقول:

– أتعـرف؟ أصـبحنا نفـتقد الانتصـارات إلى حـد أن انتصـاراً رياضـياً متواضـعاً يُشعرنا بنشوة ربما كانت تزيد بكثير عما يستحق الموضوع.

"عظيم! الحوار سيكون حامياً إذن". قلتُ له:

– أتعرف يا قتيبة أنك رجل مدهش؟

قدّم لي كأسي وهو يهز رأسه مبتسماً ويقول:

– أعرف. مللتُ من سماع ذلك. أنا رجل مدهش فعلاً. لا ألوم أحداً على هذا الوصف. رجال العلم ساهموا في إعطاء انطباع عن أنفسهم يجعل من المنطقي تماماً أن أوصف أنا بأنني مدهش.

صمت قليلاً، ثم رفع كأسه وقال:

– لنشرب نخب صداقة جديدة، وجميلة.

رفعتُ كأسي مبتسماً، وأكدتُ:

– جميلة. نعم. يبدو أنها ستكون كذلك.

شربت القليل، وأشعلتُ سيجارتي، وسألتُه:

– أنتَ أيضاً تشعر بالافتقاد للانتصارات؟

– أتساءل: ماذا تعني بـ "أنت أيضاً"؟ أنت تعود بنا إلى النقطة نفسها: أنني رجل مدهش. أستطيع أن أفسر سؤالك بأنك تفترض بأن رجل العلم هو رجل درس في الغرب، فهو متأثر كثيراً به. لن أنكر. يعجبني الغرب. يعجبني الكثير فيه. لكنني أريد أن أصنع مثله هنا. ليس مثله تماماً، فأنا لا أريد أن أعيد إنتاج ثقافة تافهة كثقافة الهامبرغر، لكنني أتحدث عن التقنيات والعلوم، عن القوة، عن بعض المبادئ الجميلة والإنسانية التي أصبحت مكرّسة هناك.

كانت دهشتي تتصاعد. في البداية، قلتُ في سري: "ها! هذه نقطة موفقة. لقد قلتُ منذ البدء إنك مفتتن بالغرب، لكنك مخلص في أن ترى مثله في وطنك"، لكنني ما لبثت أن تراجعت حين نطق بعبارة "ثقافة تافهة كثقافة الهامبرغر". سألته:

– أنت أيضاً تتحدث عن ثقافة الهامبرغر؟

هز رأسه مؤكداً وهو يجيب:

– رغم أنني أحب الهامبرغر. بالمناسبة، أنا رجل أكول جداً. أعشق الطعام والشراب بشكل هائل. أعشق أيضاً الهامبرغر. إنها أكلة لذيذة. إذا اكتفت بأن تكون طعاماً فأنا أرحب بها، لكنها الآن رمز لثقافة كاملة، ثقافة قائمة على الاستهلاك السطحي التافه.

– وعن أية ثقافة تبحث أنت؟

– بصراحة، عن ثقافة لم توجد بعد. لا أستطيع أن أعثر عليها في تاريخ قريب أو بعيد. ثقافة تمثل خلاصة حضارة إنسانية رفيعة قائمة على العدل والمساواة والكرامة الإنسانية. ثقافة ترتكز على الشعر والفلسفة، لا على القوة العسكرية والمصالح الاقتصادية.

ابتسمتُ. إنه يحقق ما هو أفضل بكثير مما توقعتُه منه. كنت أتأمله وهو يواصل تدفقه في الحديث. تحدث طويلاً عن ابتعاد الحضارة التقنية الحديثة عن روح الشعر والفلسفة. وصفها بأنها تجارة

وحسب، قوة وحسب. تحدث عن حياته في الغرب وكيف كان يعد الأيام بانتظار أن يعود ويشم ياسمين دمشق. (نعم! لقد قال ياسمين دمشق، بالضبط هكذا. لم يتحدث عن أوابدها ولا عن ترابها)، وضرب أمثلة مأخوذة عن فلاسفة متعددين (وقد كان ماركس، لدهشتي الشديدة، واحداً منهم). تابعتُه لوقت طويل وأنا أتساءل: "هل ستُكتب الرواية إذن؟ ها هو بطلي أمامي. لم يعد نقيضاً لدمشق كما صورتُه في البدء. لا بأس. يمكن التنازل عن هذه النقطة، ولكن، أين قضيته؟ أين ملحمته؟"

صمت قتيبة تماماً. كان قد تعب من الكلام، أو ربما لاحظ أنه يتصرف وكأنه قد استمتع بكونه "رجلاً مدهشاً" فراح يستعرض نفسه بطريقة ترسخ حقه بهذا الوصف، وتنتقل بسامعه من دهشة إلى أخرى. أخذ قسطاً من الراحة، ثم قطعه بمرح وهو ينهض قائلاً:

— دعنا نستمع إلى بعض الموسيقى.

نعم! لقد اختار فيروز. إنه يتعمد أن يدهشني، لكنه أبقى لي على واحدة إلى نهاية السهرة. كنا قد انتقلنا إلى حديث مرح ولطيف أخذت أكتشف من خلاله أكثر فأكثر روح الدعابة التي تتحرك بخفة، ودون أي اصطناع، داخل هذا الإنسان، وفي لحظة ما، قطع الحديث، وتراجع مستنداً إلى مقعده، وأشار إليَّ بأن أصمت قليلاً. كنت أود أن أطلب منه الأمر نفسه، لكنني شعرت ببعض الحرج، فلم أفعل. وصمتنا معاً، ولم نعد نسمع إلا صوتها قائلة:

يا طير يا طاير على طراف الدني...
لو فيك تحكي للحبايب شو بني...
يا طير...يا طير...

-٤-

عند هذه النقطة، تحوّل ما افترضتُه نهاية للقاء، إلى بداية جديدة له. كانت دمعتان صغيرتان قد تلألأتا داخل عيني قتيبة أثناء استماعه إلى هذه الأغنية. إنه يعرف الدمع إذن، بل أكثر: فلو كنتُ مكانه، لتعمدت أن أبعد وجهي حرصاً على ألا يلمح أحد دموعي، أما هو فلم يفعل. ليس فقط أنه يعرف الدمع إذن، بل إنه أيضاً لا يخجل به.

قلت متسائلاً:

- من الواضح أن لك ذكريات حزينة مع هذه الأغنية.

ظل صامتاً لعدة ثوانٍ، ثم عاد إلى جلسته العادية وأخذ يصب كأساً جديدة. ارتشف رشفة منه، وتنهد، ثم ردد:

- يا طير

صمتُّ احتراماً لذكرياته، لكنه بعد ثوانٍ سألني:

- شجاع. أنت روائي. أجبني، إن كنتَ تملك جواباً على هذا السؤال: ما الذي يجعل رجلاً يحب امرأة ما، امرأة بعينها، وبعد أن ترحل عنه، يرفض أن ينساها. يفعل ذلك بإصرار وعناد. إنه يتقابل مع من تفوقها جمالاً كل يوم، لكنه لا يريد سواها، بل سوى ذكراها، لأنه يعلم تماماً أنها، هي بذاتها، لن تكون له مهما طال الزمن؟

"عمن يتحدث إذن؟ عن نفسه؟ عني؟ الحب إلى هذا الحد؟ هذا ليس مجرد سقوط للمسلمات. إنه انهيار كامل لها". ساد الصمت من جديد إلى أن قطعه قائلاً:

- لم تجبني.

باغتني كلامه. لم أفترض أنه يسأل فعلاً. قلتُ بارتباك:

- لا أعتقد أن هناك أجوبة عن الحب. لا جواب، وربما كان هذا أفضل. الحب يستمد سحره الخاص من كونه غير مفهوم، وغير منطقي على الإطلاق.

هز رأسه مؤيداً وقال:

- نعم. ربما كان هذا صحيحاً.

ارتشف رشفة أخرى، ونظر إليَّ مطولاً، ثم قال:

- وأنت؟

نظرت إليه مستفسراً وقلت:

- وأنا ماذا؟

– ماذا عن الحب في حياتِك؟

تنهدتُ بحزن، وقلتُ:

– كنتَ تتحدث عنه قبل قليل.

– من؟

– أنت.

– كيف؟

– حين كنتَ تتحدث عن نفسك. أنا أيضاً أشاطر الذكرى حياتي. أنا أيضاً أحببتُ امرأة وفقدتها، لكنني لم أفقد طيفها، أيقونتها. لا زلت أعيش معها، وسأواصل فعل ذلك إلى آخر يوم من حياتي.

كانت ابتسامة عذبة قد ارتسمت على وجهه. قال بصوت هادئ:

– يا إلهي يا شجاع. كم نحن متشابهان؟ لماذا لم تظهر منذ زمن طويل؟ كنت أحتاج إلى صديق مثلك.

ابتسمتُ، وأجبته:

– خربطة في التوقيت.

قال بدهشة:

– ماذا؟

كررت:

– خربطة في التوقيت، معك أنت أيضاً.

– ماذا تعني؟

– إذا كان هناك اسم يجب أن يطلق على قصة الحب التي عشتُها، فإن أكثر الأسماء دقة هو هذا: خربطة في التوقيت.

هز رأسه، وساد الصمت من جديد. أخيراً نهض وقال:

– ما رأيك بأن نتمشى قليلاً؟

أجبته:

– اقتراح عظيم.

اتجه نحو غرفة النوم، وفتح بابها. لمحتُ بعض الفوضى، الأمر الذي يبعده أكثر فأكثر عن بطلي. كان هناك سرير عريض تتناثر عليه أغراض متعددة. لم أعد أرى قتيبة في تلك اللحظات، لكنه فجأة ظهر

وهـو يتجه إلى مؤخرة السرير. كان هناك إطار لصورة غير مرئية بالنسبة لي. طبع قبلة على الصورة، ثم أعادها إلى مكانها بعناية، واتجه نحوي. قال:

— هيا بنا.

نهضتُ وقلتُ:

— هل أستطيع أن أراها؟

سألني:

— من؟

— المرأة التي استحقت أن يتذكرها قتيبة إلى الأبد.

أطرق للحظات مفكراً، ثم نظر إليَّ مبتسماً، وقال:

— حسناً.

عاد إلى غرفة النوم وجاء بالصورة.

تسـارع في دقات القلب، جحوظ للعينين، رجفة لليد: هذه علامات متعددة للمفاجأة الصاعقة. هل كان هـذا ملحوظاً بالنسبة له؟ على الأرجح لا، لأنه ظل ينظر إليَّ مبتسماً، وحين أعدتُ له الصورة، سألني ببساطة:

— ما رأيك؟

لكنني لا أتذكر بماذا أجبته.

—٥—

نجوى؟!

نجوى أيضاً؟!

في اللحظات الأولى، حين كنت أهبط السلالم خلفه تماماً، أخذت أنظر إليه بكراهية. لقد تسبب بانهيارين كبيرين في لحظة واحدة: نحن الآن غريمان، نتقاسم حب امرأة واحدة، ثم، ها هو يدمر روايتي تماماً، ويكاد يحولها إلى سيناريو فيلم يصلح لأيام السينما الأولى.

نحن الآن غريمان نتقاسم حب امرأة واحدة:

هذا واضح. لا يحتاج إلى أي تفسير. كلانا نحب نجوى. كلانا نشاطر حياتنا ذكرى امرأة اسمها نجوى. أستطيع الآن أن أتذكر أمراً: حين أخبرتُ نادر، ذلك الصديق الذي التقيتُ نجوى للمرة الأولى في بيته، بأنني أحب نجوى، قال لي:

— معك حق. نصف الأصدقاء والجيران على الأقل مهتم بها.

ثم أضاف:

— لي صديق، ربما تعرفه، مهتم جداً بها.

وذكر لي اسمه. لم أعد أذكر هذا الاسم. كان اسماً غريباً ونادراً هو الآخر. هل كان قتيبة؟ لا. لا أظن. كنت سأذكر لو كان الأمر كذلك. يومها شعرتُ بضراوة المهمة. كنتُ أطرق باب الحب دون أن أكون متأكداً من أنني أملك مفاتيحه. لم أكن، على الإطلاق، قد خبرتُ عالم المرأة، ونصف الأصدقاء والجيران هؤلاء، ألن يكون بينهم بعضٌ — على أقل تقدير — ممن يعرفون التجول في عالم الأنثى، أفضل بكثير مما أستطيع أن أفعل؟

كان هذا فيما مضى، أما الآن، فها هو واحد منهم أمامي وجهاً لوجه. واحد من هذا النصف، أو من نصف آخر لمجموعة بشرية أخرى تحركت فيها نجوى.

ولكن مهلاً: "غريمان نتقاسم حب امرأة واحدة؟". لا. لا يبدو هذا دقيقاً. نجوى الآن ليست هنا. نجوى لم تعد، بالنسبة لكلينا، امرأة، بل غدت ذكرى. كنا سنكون غريمين فعلاً، لو التقينا في تلك الأيام. كنت سأمتلك الاستعداد الكامل لتحطيمه لو حدث ذلك، أما الآن...ماذا؟ ما الاسم الذي يمكن أن أطلقه على وضع كهذا؟ نحن نتقاسم الطيف نفسه، الذكرى نفسها، أو...نعم. بالضبط هكذا: نحن نتقاسم الأيقونة نفسها. إذن، ويا للنتيجة المدهشة، نحن نتبع مذهباً واحداً. عليَّ أن أحبه إذن. بالضبط: ألم أقل دائماً إنني أمتلك موقفاً عدائياً شديداً تجاه كل من يمكن أن يلتقي بالجمال دون أن

يحـتفي بـه؟ هـو ذا رجل يحتفي بالجمال بطريقة ممتازة. هو ذا رجل تتملكه روح نجوى. نتيجة رائعة إذن.

لكـن مهـلاً مـرة أخـرى. ثمـة تفصـيل صـغير. إنـه يمتلك صورتها. هل أستطيع أن أنسى ذلك الإصرار العجيب على الرفض الذي كانت تجابهني به كلما طلبتُ منها أن تهبني صورتها؟ إذن لماذا تهبها له؟ لماذا يا نجوى؟

إذن: "لـماذا يـا نجـوى؟" وليس: "لماذا يا قتيبة؟". العتاب موجه إلى نجوى في هذه الحالة، أما قتيبة، فـلا ذنـب له في ذلـك. عظيـم. وإن كنتُ لا أستطيع إلا أن ألومه على هذا الافتقار الشديد إلى الحرص. كيـف يعـرض عـليَّ صورتها بهذه البساطة؟ هل يعلم، هذا العاشق المدعي، ما الذي كنتُ سأفعله أنا لو كـنت أحـتفظ بصـورة لـنجوى؟ كـنتُ سأحجبها عن جميع الأعين. كنتُ سأخبئها كنزاً ثميناً خاصاً لا يحق لعين بشرية أن تراه سواي.

المهـم: هـا قـد تخلصـت مـن واحد من الانهيارين، كما سميتهما، بعد أن أنجزنا هبوط نصف السلالم. أمتلك بعض الوقت لمعالجة الآخر إذن.

هو يدمر روايتي تماماً، ويكاد يحولها إلى سيناريو فيلم يصلح لأيام السينما الأولى:

لا! هـذه أمـرها أكـثر سـهولة بكـثير. مـن قال أصلاً إن لقائي بصورة نجوى في بيته هو البداية المناسبة للمـلحمة، أو للقضـية، أو للمأسـاة التي على قتيبة أن يعيشها؟ مستحيل. بل أية سخرية؟ هل سأكتب أنـا، أنـا بنفسـي، عـن حـب قتيـبة لـلمرأة التي اعتزمتُ أن أكتب لها رواية العمر؟ كيف يكون ذلك؟ أفـرّط، بهـذه السـهولة، بـدرة إنـتاجي الأدبـي؟ أفـرّط برسـالتي إليهـا؟ وبطـريقة على هذه الدرجة من الابتذال؟ بالكتابة عن حب رجل آخر لها؟

أو...أو ربما عن حبها هي له؟

لا! مسـتحيل آخـر. هكـذا، دون أي سـبب مـنطقي، سـأجزم بـأن هـذا مستحيل. لن أستطيع مواصلة البحث عن ملحمة بطلي إن لم أفعل.

وبالفعل: لن تكون نجوى ملحمته. ما هي إذن؟ هاكم إياها:

-٦-

- بامتلاك القوة.

بطريقة حاسمة وواثقة، أتاني جوابه هذا حين كانت أصوات خطواتنا تخترق الصمت شبه الخاشع لليل دمشق المتأخر. كنتُ، متخلصاً من تأثير ما افترضتُه في البداية انهياراً للمشروع برمته، ومدفوعاً بفضول أدبي يحثني على الضغط على قتيبة لكي يُفصح عن قضيته، كنتُ قد سألته:

- ترى، بأية وسيلة يمكن لنا بعد كل ما حدث في العالم من انهيارات للأحلام الكبرى، أن نواجه هذه الغابة التي تحول إليها العالم؟

كنتُ أطرح سؤالي وكأنني أكلم نفسي. تعمدتُ أن أظهر السؤال وكأنه تساؤل ذاتي يخيم عليه شيء من الحزن. لم أكن أرغب بأن يشعر بأنه يخضع لما يشبه التحقيق. هو أيضاً، تعامل مع سؤالي بهذه الطريقة، فلم يجب فوراً، بل بدا وكأنه يفكر. بالرغم من ذلك، أتى جوابه قاطعاً وواثقاً. لم يكن يفكر بماهية الجواب إذن، بل ربما كان يفكر فقط بترك مثل هذا الحديث يجري، أم بإيقافه عند هذه النقطة. قال:

- بامتلاك القوة.

جواب ملائم تماماً لبطلي، لكنه ليس ملائماً تماماً للدكتور قتيبة مشهور، الذي دمعتْ عيناه قبل دقائق احتفاءً بطيف نجوى الذي مر أمامه. نظرتُ إليه بدهشة، وقلتُ:

- القوة؟

هز رأسه مؤكداً، وكرر:

- القوة.

قلتُ:

- حقيقة يا قتيبة أنك تحيرني. أنت...

قاطعني مبتسماً:

- رجل مدهش.

ضحكتُ وقلت:

- فعلاً. أكثر بكثير مما تصورتُ في البداية.

- وما الذي أدهشك الآن؟

- الأمر واضح: هذا الانتقال السريع من ذكرى الحب، ومن الحديث عن ثقافة ترتكز إلى الشعر والفلسفة، إلى حديث عن القوة.

ابتسم قتيبة وقال:

— هل شعرتَ بتناقض بين الأمرين؟ يا لك من مثقف إذن!

هجوم كاسح. لا، هذه المرة لم يبدُ الأمر كدعابة. كان انزعاجي واضحاً له، لذلك أضاف فوراً:

— لا تنزعج يا صديقي. أنا أتكلم مع الأصدقاء ببساطة شديدة جداً، ودون تفحّص كل كلمة سأقولها.

— إذن هذا هو رأيك الحقيقي؟

— فيم؟

— فيَّ أنا.

أطرق للحظات، ثم قال:

— لا. لقد عبرتُ لك عن إعجابي بك منذ لقائنا الأول، وأؤكد لك أن هذا الإعجاب يتواصل، بل إنه يزداد.

ساد الصمت للحظات من جديد، إلى أن قطعه قائلاً:

— لكن السؤال الذي طرحتَه يشبه نوعية من التفكير لا أكنُّ لها الكثير من الاحترام. ربما يُقال: لكي تكون شاعراً نموذجياً، عاشقاً نموذجياً، عليك أن تكون تطبيعياً من الطراز الأول، لأن ثقافة الحب والشعر، معادل موضوعي لثقافة السلام.

ابتسمتُ وقلتُ:

— إذن الأشخاص عندك اثنان: إما تطبيعي أو حامل للسلاح؟

— ليس بالضبط. لكن: إما تطبيعي أو مالك للسلاح.

عاد صوت خطواتنا يخترق السكون، لكنه توقف فجأة وقال:

— اسمع. سؤالك الأساسي يغريني بمحاولة الإجابة عنه. أنت تحدثتَ عن انهيار الأحلام الكبرى على مستوى العالم، وعما يمكن عمله في مواجهة ذلك. أنت تنسب لنفسك دوراً عالمياً إذن؟ تريد مواجهة أزمة تلف العالم من أقصاه إلى أقصاه؟

بدا لي سؤاله اتهامياً، فأجبتُ مدافعاً:

— بالطبع لا...

قاطعني:

— ولكن لمَ لا؟ من حقك أن تفكر بهذه الطريقة. لن يجعلني انتمائي لبلد صغير مواطناً في عالم آخر. أنا ابن هذا العالم ومشكلاته تمسني حتى لو كنتُ أعيش في قرية نائية.

سألتُه:

— إذن؟

قال:

— إذن عليكَ في البدء أن تحدد المشكلة. المشكلة حسب ما أراها تكمن في هذا الانتصار الذي يكاد يبدو نهائياً، لقيم السوق والمال والبورصات. لاقتصاد الألعاب والمقامرة. لصناعة الموت والدمار. أليس كذلك؟

هززتُ رأسي موافقاً، وقلتُ:

— بالتأكيد.

تابع قائلاً:

— وعليك أن تسأل: من هو المهزوم أمام هذا المنتصر؟ ببساطة أقول لك إنه الإنسان. الإنسان في كل مكان. بالأحرى: إنسانية الإنسان في كل مكان، كرامته، حريته. توافقني؟

فكرتُ للحظات، ثم قلت:

— ليس تماماً.

— لماذا؟

— أعترض على قولك: "في كل مكان". الإنسان في الدول التي تمثل الانتصار الذي تحدثتَ عنه، رابح مع دولته.

— هذا ما يبدو لك في الظاهر. هو يبدو لك مرتاحاً، يعيش في بحبوحة ويتنقل بسيارته ويدلي بصوته في الانتخابات، وتحيط به أسباب الرفاهية من كل جانب. هذا كله صحيح، لكن لأوضح لك رأيي دعنا نتحدث مباشرة عن أعظم الدول المنتصرة. إنها بالطبع أميركا. راقب حياة أسرة أميركية بسيطة وطبيعية، ستجد أسرة تشبه أسرتك ربما. طبعاً لا أتحدث عن الفوارق في السلوك، أو حتى الفوارق في الحقوق الإنسانية. لكنني أتحدث عن المدى الذي تصل إليه أحلام هذه الأسرة. هذا المدى لا يتجاوز، في الغالب، تأمين قوت العائلة ودراسة أبنائها واستشفائهم. لا علاقة لأسرة كهذه، على الإطلاق، بدسائس المخابرات المركزية، أو بالمصالح الدولية والإقليمية. يمكنك أن تسخر ما شئت من الموسيقى التي يسمعونها، أو تستهجن ترك ابنتهم تأتي بصديقها إلى غرفة نومها، لكن هذه فوارق ثقافية. هذه الأسرة هي النمط الغالب، وهي لم تنتج العولمة ولا شاركت في قصف العراق.

فكرتُ قليلاً ثم أجبت:

— ربما، لكن أفرادها، على الأرجح، تظاهروا تأييداً لقصف العراق، وتبرعوا لصالح المنظمات الصهيونية.

— هذا غير مؤكد إلى هذا الحد، ومع ذلك، إن كان قد حصل، فهو تعبير عن نقص في الوعي الثقافي والسياسي. إنهم أنفسهم، بعد أن شاركوا في تظاهرة مؤيدة لقصف العراق، قد يساهمون في جمع التبرعات لأطفال العراق.

ابتسمتُ، وقلتُ بشيء من السخرية:

— أنت أيضاً؟

— أنا أيضاً ماذا؟

— تنسب إليهم فضائل قد لا تتوفر إلا في الملائكة.

رفع حاجبيه باستغراب، وأجاب:

— هل تحدثتُ عن فضائل؟ أقول لك إنها أسرة عادية جداً، تعيش أيامها فقط وليست لها أية طموحات بالسيطرة على أيام الآخرين. ربما كانت أسرة سيئة جداً، بأب سكير وأم خائنة وأولاد شرسين. ليس هذا هو ما أتحدث عنه. أحاول فقط أن أقول لك إن هذه الأسرة لا يمكن اعتبارها من فئة المنتصرين.

— ولا المهزومين على أية حال...

— طبعاً، بل ربما كانت مستفيدة من الانتصار، لكنها لم تصنعه، ولم تكن لتوافق على الوسائل التي استُخدمت لإحرازه.

قلتُ برضى:

— عظيم. وماذا بعد؟

تنفس بعمق، وقال:

— حسناً. المنتصر هو قيم السوق: المال والسلاح وتجارة الفساد، والمهزوم هو قيم الشعر: الكرامة والحرية والعدالة. لكن كيف انتصر السوق؟ بما أنتجه من ثقافة؟ بما أنتجه من شعر وفلسفة؟ بالطبع لا، فالسوق لا ينتج ثقافة من الأساس. إنها نشاط لا يعنيه، وحين يحاول أن يفعل للتعويض عن هذا النقص، ينتج ثقافة تافهة لا تصمد أمام أبسط تحليل نقدي. انتصر فقط لأنه قوي. لأنه يمتلك السلاح.

— صحيح. لكن ربما أيضاً كان السبب في انتصاره عائداً إلى أن قيمه أقرب إلى الغريزة الإنسانية.

— هم يقولون ذلك، لكنهم هم، وأنت الآن، تفترضون طبيعة إنسانية شريرة. أنا لا أؤمن بذلك على الإطلاق. بالعكس تماماً. الإنسان بطبيعته منحاز للجمال. الإنسان العادي البسيط يمارس في بيته

ومع جيرانه سلوكاً فيه الكثير من النبل. إنه لا يرضى على الإطلاق أن يطبق في بيته اقتصاد منافسة، اقتصاد لهاث رأسمالي، بالعكس، إنه يشرف بنفسه على تطبيق اقتصاد مشاركة وتعاون. اقتصاد اشتراكي تقريباً.

— إذن القوة هي الحل؟

— انتظر. لم أصل إلى هذه النهاية بعد. كنت أقول إن قيم السوق قد انتصرت لأنها تسلحت جيداً، لا لأي سبب آخر، وهذا...

— لكن انتظر أنت الآن قليلاً. الاتحاد السوفييتي كان مسلحاً أيضاً، وقد هُزم.

رد فوراً:

— أنا لم أزعم على الإطلاق أن القوة ضمان للفوز، لكنني أجزم تماماً بأن غيابها هو خير ضمان للهزيمة.

ساد الصمت من جديد للحظات. أخذت أؤنب نفسي على مقاطعتي له. أريد أن أسمع ما يريد قوله إلى النهاية دون أن أقطع تسلسل أفكاره. سأؤجل اعتراضاتي إلى النهاية إذن. قلتُ له بعد أن طال الصمت:

— ألن تكمل فكرتك؟

بدا كأنه بوغت. يبدو أنه ذهب إلى مناطق أخرى. الذنب ذنبي. لم يكن يجدر بي أن أقاطعه. لكن لا. ها هو يتابع من حيث توقف بالضبط. قال:

— رأيي هو أن قيم السوق قد انتصرت لأنها مسلحة أولاً، ولأسباب أخرى متعددة ثانياً، لكنها في مجملها لا توازي التسلح. إذا كنتَ تريد أن تواجهها، عليك أن تتسلح أولاً، ثم تعالج الأسباب الأخرى ثانياً.

— لكن من؟ عمن تتحدث؟ من هو المرشح اليوم لمناهضة قيم السوق والدفاع عن قيم الإنسان؟

— أنت. أنت بالذات.

— أنا؟

— أجل. أنت وأنا وغيرنا في هذه البلاد الصغيرة الفقيرة. نحن وُهبنا فرصة هائلة لذلك. نحن وُهبنا صراعاً كنا محظوظين جداً به.

نفضتُ رأسي، وقلتُ:

— ما بك يا قتيبة؟ عمَّ تتحدث؟

— عن الصراع العربي الإسرائيلي.

- نحن محظوظون به؟
- جداً.
- كيف؟ ألا ترى تقهقرنا الدائم فيه.
- لم تفهمني إذن. أنا لم أتحدث عن النتائج. أكلمك فقط عن طبيعة الصراع. كنا سنكون محظوظين إلى أبعد حد لو لم يكن هناك أي صراع على الإطلاق، أما إذا كان لا بد من صراع، فأمر هائل أن تجد الصهيونية قبالتك، أمر هائل أن تكون في مقدمة الصراع الإنساني الصهيوني.

توقفتُ عن السير، ونظرتُ إليه ملياً، وقلت:

- الصراع الإنساني الصهيوني. يا له من تعبير.
- لا يتعلق الموضوع بأي نوع من البلاغة. إذا كنا نتحدث عن العالم، وعن الجمال والشعر، وعن السوق، فمن السهل أن نستنتج أن الإنسانية برمتها لديها مشكلة مع الصهيونية، كما أن لديها مشكلة مع العنصرية، كما أن لديها مشكلة مع قيم السوق. أنا شخصياً، كنت مستعداً للموت في سبيل إزالة نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا. إنها مشكلة تخصني تماماً.

قلتُ مبتسماً:

- لديك صراع هائل هنا، وتذهب للموت هناك؟
- قلتُ لك: أنا مواطن في هذا العالم. قيم السوق لم تكن لتنتصر لو أنها تقوقعت في المركز. لا. لقد أنشأت لنفسها مراكز عالمية متعددة. الانتصار على واحد من هذه المراكز هو انتصار على قيم السوق بالذات. هو أمر لصالح قيام ثقافة تستند إلى الشعر والفلسفة كما قلتُ لك سابقاً.

فكرتُ ملياً، ثم قلت:

- تعتمد على منطق غريب جداً، لكنك تصل إلى نتائج ترضيني تماماً.
- ولماذا تقول إنه منطق غريب؟ أنا شخصياً أمتنع تماماً عن الدخول في صراع حول بضعة كيلومترات مربعة، أو لإعلاء شأن طائفة دينية. لا. لا توجد قضية من هذا النوع تستحق أن يموت إنسان واحد في سبيلها. هنا عندي صراع لا علاقة له بالكيلومترات المربعة. إنه صراع مع فكرة عنصرية أتت بمجموعات بشرية متفرقة من أربع جهات الأرض إلى بلد تصادف أنه يخصني إلى هذا الحد، مستندة إلى أوهام دينية. أتوا بهم وأنشأوا دولة. من أجل ذلك، الصهيونية مثال كامل الأركان على العدوان على الإنسان: العرقية والعنصرية والتفوق الديني والاحتلال العسكري. هذا، وإن لم يكن له علاقة مباشرة بقيم السوق، فإنه لا يمكن إلا أن ينسجم مع قيم السوق، بل لا يمكن أن ينسجم إلا معها. لذلك تجد الصهيونية وقيم السوق في تحالف دائم. لن تستطيع أن تحدد العنصر الأقوى في هذا

التحالف، لكنني أزعم أن الصهيونية على درجة من البراعة جعلتها تتحول من الطرف الأضعف في بداية العلاقة، إلى الطرف الأقوى الآن.

صمت قليلاً، فقلتُ:

— رائع، لكن هل نستطيع أن ندعي أن الطرف الآخر، نحن، لديه الثقافة المستندة إلى الشعر والفلسفة التي تحدثتَ عنها؟

— أنت إذن توافق معي على أن الصهيونية نقيض كامل للجمال، للثقافة التي نتحدث عنها، ومن شأن رجل يعيش في قرى غينيا أن يواجهها؟

— نعم، لكنني أتساءل: هي نقيض للجمال، ولكن نحن، هل نحن الجمال؟

— بالطبع لا. ألم أقل لك إننا محظوظون بهذا الصراع؟ ربما لم نكن نحن الجمال، لكننا نحن الذين وُهبنا الفرصة للدفاع عنه. الجمال كما نفهمه، أنت وأنا، لم يوجد بعد. إنه الحلم. حين يهبك التاريخ فرصة الوقوف في مقدمة هذا الحلم، ألا يكون هذا أمراً رائعاً؟ أنت لديك مع الصهيونية مشكلة وطنية وقومية وجغرافية. مشكلة هوية. والعالم لديه مشكلة مع الصهيونية لأنها عرقية عنصرية دينية موالية لقيم السوق، أو منتجة لها. همّك الوطني الجزئي إذن هو جزء من قضية تخص الإنسان ككل. إذا خضتَ الصراع على هذا الأساس، فنعم: أنت الجمال، أما إذا خضتَه تحت راية أخرى، فلن يكون انتصارك ضماناً لانتصار الجمال على الإطلاق.

— والانتصار هذا لا بد له من القوة؟

— بكل تأكيد، بالرغم من أن أية معركة عسكرية لن تحدث.

— متأكد؟

— ليس تماماً، لكننا إن امتلكنا القوة فهي لن تحدث بالتأكيد. الصراع عندها يصبح انتحاراً.

— إذن تريد أن تضيّع جهدك ووقتك وأموالك في صناعة ما لن تستخدمه؟

— هذا مؤسف جداً، لكن لا بديل أمامي. قبل أن أمتلك القوة فأنا مهزوم، أما بعد أن أمتلكها فإنني أعيد الصراع إلى نقطة الصفر. نصبح متكافئين، وهنا يصبح الصراع ثقافياً وحضارياً، ويمكن التحدث عن السياسة والإعلام والدعاية وغيرها. الجهد إذن لا يمكن اعتباره جهداً ضائعاً.

فكرت قليلاً، وقلت:

— لا أريد أن تفهم أنني أقل حماساً منك لتحقيق مثل هذا الانتصار، لكنني أتساءل: هل يبقى الجمال جمالاً عندما يتسلح؟ عندما يمتلك القوة؟

ابتسم قتيبة ابتسامة عذبة، وقال:

— هـذا سـؤال رائـع. لا. النتيجة ليست مضمونة أبداً. لكن هذه أتركها عليك. أنت منتج للأدب، أي للجمال. أترك لك مهمة ضخ الجمال في قضيتك، في ضمير هذه القضية، في أناسها أيضاً.

همهمت بسخرية، وقلت:

— وهل تعتمد عليَّ كثيراً في ذلك؟

— كثيراً جداً، لكن كما قلت لك: أنا لا أضمن النتائج. لو قدِّر لي أن أحقق حلم القوة، ثم نهضتُ مـن القبر بعد مئة سنة لأجد أن الناس الذين تركتُ لهم هذه القوة قد تحولوا إلى مصدر لتهديم الجمال، لـتهديم ثقافـة الشـعر والفلسـفة، لـربما بصـقتُ في وجوههـم، ووصفتهم بالجحود والعقوق، لكن هذا لن يدفعـني إلى القـول بأن ما اشتغلتُ في سبيله كان خطأ. لا. على الإطلاق. الآن هناك خراب قادم، لستُ أنـا مـن أنجـزه، وإذا أثمـر جـهدي التعجيل به، فهذه قضية توقيت لا تعنيني كثيراً، لكن جـهدي هذا هو الأمل الوحيد الباقي لمنع هذا الخراب من أساسه.

أخذنـا نسـير لدقـائق مـتعددة دون أن نـتفوه بكلمة. كنتُ أمعن التفكير بكلامه. مملكة الجمال الصغيرة المهـزومة، لا بـد لها من القوة إذن؟ الشعر والفلسفة لا تحميهما إلا القوة؟ أي تناقض هذا. صحيح أنني رحـبتُ عـلىالدوام بأي شبه انتصار تحقق في مسار الصراع العربي الصهيوني، إلا أنني لم أتخيل نفسي في يـوم مـن الأيـام مدافعـاً عـن القـوة. وعـن أية قوة يتحدث؟ كلامه واضح تماماً: عن القوة النووية. يا إلهي. صناعة الموت والدمار. صحيح، ألم يتلفظ هو بنفسه بهذه الكلمة؟ ها! لقد اصطدته الآن. قلت:

— أنـت تـتحدث طوال الوقت مدافعاً عما سميتَه في البدء صناعة الموت والدمار. هل تريد أن تكون واحداً من المشتغلين بهذه الصناعة؟

ابتسم قتيبة وقال:

— يـا شجاع، يا عزيزي، افهمني. أكثر ما أتمناه وأكبر حلم لديَّ هو أن تصل الإنسانية إلى يوم لا يُضـطر فيـه إنسـان واحد لإضاعة وقته في صنع قنبلة، بدلاً من قراءة الشعر وجمع الزهور وإنتاج قصص الحـب. أنا أتحدث من موقع دفاعي بحت. أنا لا أصنع موتاً ودماراً. هذان صُنعا قبل ذلك بزمن طويل. ما أفعله هو الأمر الوحيد الذي ينقذني، بل وينقذ أعدائي، من الموت والدمار.

ابتسمتُ بسخرية، وقلت:

— تخشى عليهم من الموت والدمار؟

— أنا أكره الدم. أكرهه إلى أبعد حد ممكن. أريد تدمير الصهيونية، ويسرني إن استطعتُ أن أفعل ذلـك دون إراقة دم صهيوني واحد. أنا أرفض أية عملية مقاومة تستهدق مدنيين. حين يُقتل طفل واحد مـن أطفـال أعدائي، يصيبني الحزن. عندما تسأل منفذي العملية: أليس هذا إرهاباً؟ يقولون لك ببساطة

إن هـذا الطفـل كـان سيكون شارون آخر. هل أقبل بمنطق كهذا؟ ولماذا لا يكون فعنونو آخر، أو لماذا لا يكـون واحـداً مـن أولئك الرافضين للفكرة الصهيونية، للعدوان والتسلح؟ ثم إنه طفل. جاء إلى الموت بعد أن كان يلعب بالألعاب نفسها التي يحبها أطفالي، ويضحك بالطريقة نفسها.

إنـه يعـرف فعـنونو إذن! إنـه أيضـاً يعمل في صناعة قنبلة لن يستخدمها أبداً. نعم. أراهن أن قتيبة لن يضغط الزر لو كان الأمر بيده. قررتُ أن أسأله بوضوح:

— لو نجحت جهودك، وكان الأمر بيدك، هل من الممكن أن تضغط الزر؟

فكر قليلاً، ثم أجاب:

— نعم.

قلت باستنكار:

— نعم؟

— في حالة واحدة. أن يكونوا هم من ضغط الزر أولاً.

— لكنك كنتَ تتحدث عن الأطفال قبل قليل.

— لكن، في حال قرروا الأمر هم، فلا يوجد أي منطق أو حكمة من ترك أطفالي يموتون وحدهم.

ضحكتُ، وقلتُ مداعباً:

— إذن أعـبر لك عن سروري الكامل بأن حديثك لا يدور إلا حول مجرد أوهام يستحيل تحققها في عصر العولمة هذا.

هز رأسه أفقياً عدة مرات مبتسماً وكأنه يريد أن يقول: "أي سخف"، ثم قال:

— عولـة. يـا أخـي مـا هـي العولـة هذه؟ أشعر أحياناً أنهم يتفننون في إنتاج مفرداتهم، ثم نندفع نحـن لفلسـفتها أكـثر مـنهم. هل نحن فعلاً في عصر جديد اسمه عصر العولمة؟ أنا شخصياً لا أذكر أنني شعرتُ أنني كنت أعيش في عصر "لا عولمة" ثم استيقظتُ ذات صباح لأجد نفسي في عصر "عولمة".

ابتسمتُ برثاء لهذه الفكرة السطحية، وقلت:

— الأمر لم يحدث بين عشية وضحاها بطبيعة الحال.

— حـتى إنـه لم يحدث بين قرن وآخر. اسمع، حين قال رجل من رجالهم عبارة "نهاية التاريخ" السـخيفة، أطـلقوا عـليه وصف فيلسوف. هكذا بكل بساطة. أرادوا مكافأته لأنه عبّر بطريقة أفضل عما أراد قولـه رئيسـهم حـين قـال عـبارة "الـنظام العالمي الجديد". العبارة أفضل دون شك، تمتلك جاذبية خاصـة، لكـنها ليست سهلة التسويق بعد. هنا حصلوا على "العولمة". كلمة جذابة وسهلة ولطيفة. إنها كلمة لا أكثر ولا أقل. ليست عصراً ولا حتى برهة تاريخية.

– لكن لا تنكر أنها تعبر عن واقع جديد.

– بلى. إنها الكلمة الاحتفالية التي يطلقونها على انتصار السوق. يريدون أن يقولوا لك إن العالم كله صار مجالاً مفتوحاً أمامهم.

– ها أنت تعترف. هناك واقع جديد خلّفه انتصارهم.

– وهل يمكن أن ينكر أحد ذلك؟ لكن مفردة "عولمة" لا هدف لها إلا إقناعك بأن هذا الواقع الجديد نهائي تماماً. لا أقبل فكرة كهذه. الصراع في العالم سيبقى مستمراً ما دام هناك إنسان يجوع، وتُنتهك كرامته وحريته. حتى إنني أقول لك إن العبارة تعجبني إذا كففتَ عن اعتبارها عصراً. "عولمة". يا له من اعتراف بأن الصراع قد أصبح عالمياً يخص كل سكان هذا الكوكب.

صمتنا لفترة طويلة. كان طيلة هذه الفترة مطرقاً وكأنه يفكر بأمر ما، ثم نظر إليَّ، وابتسم ابتسامة غامضة، وقال:

– تعتقد إذن أنني لا أتحدث إلا عن أوهام؟

هززتُ رأسي مؤكداً، فمد يده بمرح وشبكها بيدي قائلاً:

– تعال معي إذن. سأريك شيئاً.

-٧-

عندما أخذ قتيبة مكانه خلف المقود، وقبل أن يدير مفتاح التشغيل، نظر إليَّ مبتسماً وقال:

- أرجو أن تكون ممن يتحلون بروح رياضية.

- لماذا؟ هل ستأخذني لحضور مباراة؟

ضحك، ومد يده إلى درج في السيارة، وتناول عصابة سوداء. نظرتُ إليه بدهشة، فابتسم وقال:

- يمكنني أن أريك شيئاً يهمك، لكن فقط إن وافقت على أن أضع هذه العصابة حول عينيك.

قلتُ باستنكار:

- لماذا؟

رد مبتسماً:

- يا أخي وافق دون أسئلة الآن، لكنني أؤكد لك أنك لن تندم في النهاية.

قلتُ باستسلام:

- حسناً.

شد العصابة جيداً حول عينيَّ، ثم أدار محرك السيارة. قلتُ له:

- أنت تُشعرني بأننا نمثل دور البطولة في فيلم بوليسي.

ضحك وقال:

- عظيم. أليس هذا شعوراً مثيراً؟

- بالنسبة لشجاع كروائي: نعم، أما بالنسبة لشجاع كصديق، كما اعتبرتَه بنفسك، فإن الأمر يبدو مهيناً.

سمعت صوت فرامل السيارة تتوقف. قال قتيبة بحدة:

- إذا كنتَ ستنظر إلى الأمور بهذه الطريقة، إذن لنعد من حيث أتينا.

- هل تتحكم بي يا أخي؟ كنت أعبر عن شعوري.

- لا أفهم شعوراً كهذا. أنا أقودك إلى مشهد لم ترَ مثله في حياتك، وألتزم بضرورات أمنية لا يجوز أن يتخلى عنها من هو مثلي ولو مع أمه، وأنت تتحدث عن الإهانة؟

ابتسمتُ وقلت:

- لا بأس. أعتذر عن هذه الكلمة. معك حق.

أدار المفتاح ثانيةً، وانطلقت السيارة من جديد. سألته:

- ولكن كيف هذه؟

— أية واحدة؟

— "إما تطبيعي أو مالك للسلاح"؟

— لأنك إن لم تمتلك السلاح فأنت ستتصرف في بعض المواقف كتطبيعي مهما كانت شراسة عداوتك للتطبيع. أنتَ رجل يربي العصافير ويعنى بالزهور ولا يريد شيئاً من العالم عدا ذلك، لكن ثمة رجلاً بعضلات مفتولة يتربص بعصافيرك وزهورك. ماذا تفعل؟ تمنعه؟ طبعاً، ولكن بعضلاتِك الضامرة هذه؟ هذا يدعى انتحاراً. إذن لا بد من أن تنميها جيداً، وإلى أن يحصل ذلك؟ ألن تُضطر إلى مداهنة هذا الرجل قليلاً لكي تحمي عصافيرك وزهورك؟ أليس هذا تطبيعاً معه؟

— لا، لأنني سأشتمه في سري.

ضحك قتيبة طويلاً، ثم قال:

— الله أكبر. بطولة حقيقية.

ساد الصمت لبضع دقائق، ثم قطعه قتيبة قائلاً:

— أتعرف يا شجاع أننا، بالرغم من خلافنا، نعمل من أجل المبدأ نفسه؟

هززت رأسي مؤكداً وقلت:

— نعم، ولكن بطريقتي تفكير مختلفتين.

— حتى إنهما ليستا مختلفتين إلى هذا الحد. أتذكر حين كنتَ تظن أنني لا أحب "خبطة قدمكم"؟

تسارعت دقات قلبي بشدة. رفعتُ حاجبيَّ باستغراب، وقلت:

— أنا؟

— أجل أنت.

— لم أقل لك أمراً كهذا.

— قلتَ يا شجاع. قلتَ. هل سأخترع الأمر إذن؟ لعلك نسيت. المهم، كنت أريد أن أقول إننا نحب "خبطة قدمكم" معاً، لكن أنت تغنيها، وأنا أعمل من أجلها.

شعرت بنفسي في قفص اتهام ولا بد من دفاع. قلتُ معترضاً:

— ولكن غنائي لها هو...

قاطعني:

— ولكن غناءك لها هو الأساس. أنت من ألهمني أن أفعل ما أفعل. هذه هي الحالة المثالية التي أتمنى أن أراها ذات يوم: الفلسفة تقرر، الفن يقرر، الشعر يقرر، وعلى العلم أن ينفذ.

فكـرة رائعـة، لكـنها لـن تثـنيني عن مواصلة تفكيري بهذه: هل قلتُ للدكتور قتيبة مشهور إنني أعتقد أنـه لا يحـب "خـبطة قدمكـم"؟ وأخذتُ أنقب في ذاكرتي. لم يكن الأمر بحاجة إلى جهد كبير، فأنا لم ألـتقِ مـع الدكـتور قتيـبة مشـهور إلا يـوم تعارفنا في منزل أنور وسوسن، واليوم. في منزل سوسن وأنور، أسـتطيع أن أجزم بأن هذا لم يحدث. طيب، اليوم؟ لقد مرت ساعات متعددة على فوز منتخبنا الوطني في مـباراته، وتحدثنا لوقت طويل جداً، لكن أبداً. أستطيع أن أقسم! لم آتِ على ذكر خبطة قدمكم من قـريب أو بعيد. أو...أو ربما حين كنا نستمع لفيروز؟ لا لا. لم يحدث. كنا محلقين مع روحي امرأتين تبيّن في نهاية الأمر أنهما ليستا سوى امرأة واحدة. إذن...

أدرت وجهـي إليـه أريـد التفرس في ملامحه، لكن العصابة السوداء كانت مشدودة جيداً. كدت أسأله: "من أنت؟"، لكنني شعرت بالسيارة تتهادى وتبطئ من سرعتها إلى أن توقفت. سمعت صوتاً يقول:

— أهلاً دكتور قتيبة.

— صباح الخير.

— صباح النور.

— هل نستطيع أن نمر؟

— بالطبع، ولكن...معك ضيوف؟

— أجل.

— من؟

— صديق.

— هل تمتلك ثقة كافية؟

— طبعاً.

— هل تسمح ببطاقتك الشخصية يا أخ؟

فهمـتُ أن الكـلام موجـه لي، فمددت يدي وناولته ما طلب. ساد الصمت للحظات، ثم سمعت الصوت يقول:

— شجاع فارس؟ الروائي نفسه أم أن هناك تشابهاً في الأسماء؟

رد قتيبة:

— لا. هو بنفسه.

— حسناً. تفضلوا.

سمعتُ صوت جلبة ضخمة. كان هناك باب حديدي ينفتح على ما يبدو، ثم تحركت السيارة من جديد.

-٨-

أستطيع أن أتذكر: أعمدة منتصبة عالية، شيء ضخم يشبه مرجلاً يتصاعد منه الدخان، ثم، داخل مبنى ما، أجهزة ضخمة وأخرى أصغر حجماً، وشاشات متعددة، وأوانٍ ومواد مختلفة. برفقة هذا كله، كان قتيبة يتمتم بكلمات غير مفهومة. كلمات ضخمة ومعقدة وجديدة عليَّ. كنت أتساءل إن كان يستعمل العربية الآن، أم أنه انتقل للحديث بلغة أخرى لسبب ما غامض، كغموض كل شيء في هذه الليلة الغريبة.

في طريق العودة، وكان قد أعاد إحكام العصابة السوداء حول عينيَّ، سألني:

- ما رأيك؟
- بماذا؟
- بما رأيت.
- لم أفهم شيئاً.

كان واضحاً أن قتيبة قد ابتسم. قال:

- هذا أمر طبيعي، لكنني شرحت لك بعض الأمور.

"لكنني لم أفهم عمَّ كنتَ تتحدث"

لا. لم أقلها. شعرتُ بالحرج من نطق جملة كهذه قد تظهرني كأبله لا يعي ما يدور حوله.

ساد الصمت للحظات، ثم قال:

- هذا المكان يا شجاع هو الذي سيجعل "خبطة قدمكم عالأرض هدارة" فعلاً.

ابتسمتُ وقلت:

- الأمر لم يعد يتعلق بـ "خبطة قدمكم". لقد صار مرتبطاً بـ "كبسة زركم".

ضحك قتيبة وقال:

- وهل ما يهمك هو أن تسمع صليل السيوف وقرقعة السلاح؟ لكل زمان معاركه.

ساد الصمت للحظات، ثم سألته:

- ولكن ما حظوظ النجاح؟
- كبيرة جداً يا شجاع. لقد قطعنا أكثر من نصف الطريق.

ساد الصمت من جديد، إلى أن قطعه قائلاً:

- ماذا؟ ألن تتمنى النجاح لهذا المشروع؟

فكرتُ للحظات قليلة جداً، ثم أجبته:

— بلى. بكل تأكيد.

توقفت السيارة أخيراً، ومد قتيبة يده وأخذ يحلّ العصابة السوداء. كان الصباح قد أشرق على دمشق، وكنا قرب بيت قتيبة. سألته:

— ما هذا؟ ألن توصلني إلى بيتي؟

— ليس قبل أن تتذوق الإفطار الذي يمكن لقتيبة أن يعده.

في البيت، اختفى عالم الفيزياء النووية، صاحب تحليلات القوة، تماماً، وعاد المضيف الذي يعتني جيداً بضيفه، والعاشق الجميل — وإن كان عاشقاً لحبيبتي نفسها — وصاحب روح الدعابة والمرح.

تناولنا طعام الإفطار بصمت، وقد كان إفطاراً شهياً فعلاً، وتهادى صوت فيروز ثانية وهو يقول:

أنا لحبيبي وحبيبي إلي...

معبراً بوضوح عن وهم كلينا بأن يكون "حبيبي إلي"

ولم أملك إلا أن أتأمله ملياً، وأتساءل ثانية: "من أنت؟"، ثم عاد ذلك السؤال: "أين التقينا من قبل؟"، لكن السؤالين ظلا بلا جواب إلى أن وجدتُ نفسي أُطرد من منزله بطريقة مرحة.

— هيا يا أستاذ. ألن تحل عني؟ أريد أن أنام بضع ساعات قبل أن يحل موعد السفر.

تساءلت:

— السفر؟

— نعم. الليلة.

— إلى أين؟

— لن أخبرك.

ابتسمتُ وقلت:

— إذن أنت لن تصطحبني معك؟

ضحك وقال:

— فقط في حالة واحدة، إذا وافقتَ على وضع العصابة السوداء حول عينيك.

ضحكت وسألته:

— كم ستغيب؟

— لشهر على الأقل.

وتودعنا كصديقين قديمين.

-٩-

إذن لـديَّ شـهر مـن الوقت. لديَّ شهر من الوقت لمعاينة تلك الليلة التي امتدت حتى ساعات الصباح، والتي تركت لديَّ من الأسئلة أكثر مما أجابت.

من هو الدكتور قتيبة مشهور؟

حين قلتُ له كن، سعيداً بهذه المهمة التي قلتُ إن الله والكاتب يتشاركان بها، كنت أتصور أنني أريد أن أكتب عن دمشق، وأخلق، لهذه الغاية، شخصية نقيضة لكل ما تمثله دمشق.

كـنت أزهـو بالـنجاح الـذي أحققـه. بطلي يبتعد أكثر فأكثر عن روح دمشق: العقلانية المفرطة، الحياد التام أمام الحب والدين والسياسة، عدم الاكتراث إلى حد مغيظ بالفن والأدب...

لكن ماذا بعد؟ أية جاذبية لهذه الشخصية إذن للكتابة عنها؟ أي حلم؟

وكـدتُ أصل إلى اليأس، فنقبتُ عن سؤالي العتيق: أية جدوى من الكتابة؟ ثم تعقد الأمر أكثر، وصار: أية جدوى من الحياة؟

لكنه فجأة، كان.

وحـين كـان، سخر بمسلماتي جميعها، فخرج رجلاً ممتلئاً بالحياة إلى حد يشعرني بالغيرة. كنتُ أريد أن أسخر من شخصية بطلي، فإذا بها شخصية يحق لها أن تسخر مني.

وأكثر:

فإذا بها شخصية تعرف أين تكمن الجدوى، أين يكمن الحلم.

نعم. لا بد من الاعتراف.

إنه يعرف الأمر بأفضل مما أعرف بكثير.

إنني أكتفي بغنائه، هذا الحلم، أما هو فإنه ينذر نفسه له.

لكن، من هو حقاً؟

كيف سمعني وأنا أقول له إنه — دون شك — لا يحب "خبطة قدمكم"؟

هل عرفتُه ذات يوم، منذ زمن طويل، وكان لنا معاً زمن ما؟

ربما. ألم يحب، هو الآخر، نجوى؟

لماذا تراوغين أيتها الذاكرة؟ أفصحي قليلاً عن تلك الأشياء المختبئة في أعماق أعماقكِ؟

لكن، أياً كان الأمر، سيسعدني أن أعترف:

لقد أحببته جداً...

سأنتظر عودته بلهفة، علَّ بعضاً من هذه الأسئلة يعثر على جوابه.

-١٠-

لكنه كان انتظاراً بلا طائل.

هل كان لا بد من تلك الخاتمة المحزنة؟

الخبر:

"إطلاق النار على الدكتور قتيبة مشهور"

والخبر الفرعي:

"الوضع الصحي للدكتور قتيبة حرج للغاية"

وفي خبر فرعي آخر:

"فرار الجناة بعد ملاحقة مثيرة"

وفي خبر فرعي أخير:

"لا دلائل على دوافع سياسية للحادث"

خبر مكرر لبضع عشرات من المرات، لكنه للمرة الأولى يغدو بالنسبة لي شخصياً إلى هذا الحد، حميماً إلى هذا الحد.

ولأول مرة منذ سنوات أعرف أن لدي من الدمع المدرار ما يفيض عن حاجة نجوى...

بكيت، بكيت، وبكيت...

وصرخت صرخة موجعة.

ختام

-١-

مد شجاع يده بصعوبة متناولاً سماعة الهاتف.

- آلو. أين أنت؟ أحاول الاتصال بك منذ نصف ساعة.

استيقظت حواسه كلها على صوت سوسن، وسألها بلهفة:

- أهلاً سوسن. ما أخبار قتيبة؟

- من قتيبة؟

- قتيبة الـ...

لكنه تجمد تماماً. لقد أدرك الآن فقط أنه نام لعدد طويل جداً من الساعات. قال مستدركاً:

- آه صحيح. أنتِ لا تعرفين قتيبة.

وتابع حديثه مع شقيقته، ليكتشف أن مشكلتها مع زوجها لم تحل بعد، بل تعقدت أكثر، وأنها بالتالي لم ترتكب التنازل الذي أمل به.

انتهت المكالمة، وألقى شجاع بنفسه على السرير ثانية. كان متعرقاً بغزارة شديدة، وكانت الدموع في عينيه لا تزال ندية.

هو حلم إذن.

ياه...

كل هذا حلم؟

ولكن، هل كان كله حلم نوم، أم أن بعضاً منه كان حلم يقظة؟

يا إلهي يا قتيبة.

لماذا تتصرف بطريقة مراوغة إلى هذا الحد؟ لماذا تكون حلماً؟

ثم لماذا تنهض جميلاً إلى هذا الحد، بهياً إلى هذا الحد، وفي النهاية تفاجئني بأن كل هذا ليس سوى حلم؟

نعم...حلم.

بينما الحقيقة لا تزال ملوثة بالغبار...

نعم. هناك جلبة كبيرة في البناء. يبدو أنهم بدأوا بتركيب الباب الحديدي، ويمكن بسهولة سماع مشادة حامية بين جارين سيشرب كل منهما القهوة بعد قليل عند جار آخر ليتحدث عن غريمه، ولا تزال الأزمة بين سون وأنور مستمرة.

كل شيء في مكانه إذن، وذلك الجمال كله لم يكن سوى حلم.

لكن عيني شجاع تجمدتا للحظات بينما هو يستعيد بعضاً من وقائع الحلم.

فكر للحظات، ثم نهض مسرعاً وأدار سماعة الهاتف.

- آلو.
- آلو
- صباح الخير.
- صباح النور.
- هل يمكنني أن أتكلم مع الدكتور جمال لو سمحتِ؟
- لحظة من فضلك.

وانتظر.

- آلو.
- صباح الخير دكتور جمال.
- أهلاً.
- أنا شجاع فارس.
- أهلاً دكتور شجاع. أهلاً وسهلاً. كيف حالك؟
- بخير. وأنت؟
- الحمد لله.
- دكتور، لديَّ سؤال بسيط.
- تفضل.
- إذا رأى شخص ما نفسه في حلم، ولكنه لم يستطع التعرف إلى نفسه، هل يمكن اعتباره مجنوناً؟

ضحك الدكتور جمال، وقال:

- لماذا تسأل؟
- أجبني فقط. الأمر يهمني إلى أبعد الحدود.
- لكن قل لي، هل كان الشخص نفسه مشاركاً في الحلم؟
- ماذا تقصد؟
- أقصد هل كان موجوداً في حالة تعرف فيها إلى نفسه، وفي نسخة أخرى لم يتعرف فيها إلى نفسه؟

تنبهت حواس شجاع. إنه يتحدث وكأنه يذكر حالة معروفة تمثل تشخيصاً لمرض ما. أجاب:

- نعم.

همهم الدكتور جمال وقال:

- الأمر معقد إذن.

- ماذا؟

ضحك الدكتور جمال، وقال:

- لا. لا تقلق. كنت أداعبك وحسب. الأمر عادي جداً.

- فعلاً؟

- فعلاً. لا تخشَ شيئاً. أنت في أحسن أحوالك.

ولكن كيف؟

كيف لم أميز أن قتيبة كان في الحلم يحمل وجهي نفسه؟

أمتلك تبريراً صغيراً: فهو في الواقع كان يحمل وجهي حين كنت في الثلاثين، أو...ها. هذه هي. في الحادية والثلاثين من عمري. مثله تماماً. في حينها كنت حليق الشاربين، بدون نظارات طبية، وبطريقة تصفيف شعر مختلفة، وبدون الكثير من الشيب.

لكنه تبرير سخيف.

ألن أعرف صورتي في ذلك الزمن فيما لو عُرضت عليَّ الآن؟ لم أتغير إلى حد كبير في جميع الأحوال.

حسناً. عليَّ ألا أعقد الأمور إلى هذا الحد، فهذا في النهاية ليس أكثر من حلم.

حلم...

إلى متى سترافق هذه الكلمة حياتي؟

إلى متى سيبقى كل شيء جميل بهي، مجرد حلم؟

إلى متى ستبقين كذلك...نجوى؟

-٢-

نجوى...

ها أنا معكِ ثانيةً.

لقد أخفقت من جديد في كتابة روايتي الثانية. أخفقتُ، لأن البطل الذي أردته، خرج أكثر بهاءً وجمالاً بكثير مما أردتُ له أن يكون.

لقد ظهر ساطعاً إلى حد لا تستطيع لغتي الأدبية أن تقوله، حاملاً لحلم تعجز كلماتي عن وصفه.

هل يبدو هذا غروراً؟

بعد الاعتراف أن قتيبة في الحلم كان يحمل وجهي نفسه، وبعد إدراك أنه في الحقيقة كان يقول كلماتي نفسها، ألا يبدو كلامي هذا غروراً؟

إذن لن أدعي التواضع. إذا كنتُ حقاً سأفعل ما فعله فيما لو كنتُ مكانه، فإنه غرور حق، لا ادعاء فيه.

أتذكر الآن:

يوم كان عليَّ أن أنتقل إلى الصف الثاني الثانوي، ذرعت أرض الغرفة جيئة وذهاباً لأكثر من ألف مرة وأنا أتساءل: علمي أم أدبي؟

كان منظر رجل العلم يستهويني بقوة: رجل محاط بالأجهزة والأدوات، يستطيع قراءة رموز وطلاسم شديدة التعقيد، بل يستطيع أن يكتب مثلها، وأن يشرحها لسواه.

ثم، ما أجمله وهو يتحدث: حديث متسلسل متناسق ينطلق من فرض إلى طلب إلى برهان، وحين يؤتي البرهان، فقد حُسم الأمر. لا يستطيع أحد أن يجادل في برهان علمي. الأمر يكون منتهياً بعد إيراد برهان يتمتع بتسلسل صحيح.

لكن منظر رجل الأدب كان يستهويني أيضاً: رجل محاط بالأوراق والأقلام. حياة حافلة ممتلئة بهموم الوطن والسياسة. قهوة، سجائر، خمر، و...نساء.

نعم. المسألة كانت مترابطة في ذهني بهذا الشكل. لا يهم كم هو هذا صحيح، لكنني هكذا كنت أراه. يا لها من حياة إذن. تعجبني هذه الأشياء كلها، كما يعجبني أن تجري فتاة جميلة وراءه ليوقع لها على أحد كتبه، أو أن تتهافت محطات التلفزة لإجراء لقاء معه.

إذن، علمي أم أدبي؟

اخـترت الفـرع العـلمي في نهايـة المطـاف، ودرست الطب، وحين عدتُ بعد ذلك بسنوات إلى الكتابة، الـتي كـانت هوايـتي الأولى، اعتبرت أنني اجترحتُ المعجزة أخيراً، وجمعت المجد من طرفيه: طبيب ينتج الأدب. وحدث أخيراً الصلح بين رجل العلم ورجل الأدب فيَّ.

لكن من أعادني إلى الكتابة هو أنتِ.

نعم حبيبتي. أنا لم أعد إلى الكتابة إلا بفضلكِ.

وسـريعاً، عـاد رجـل الأدب للـتقدم داخل نفسي، مبعداً أكثر فأكثر رجل العلم عن المواقع التي كان قد احتلها من قبل.

حـين عـدتُ إلى الكـتابة بفضـل عيـنيكِ، توصلتُ إلى استنتاج هام: الأدب رفيق دائم للجمال، حتى لو كان جمالاً مرفقاً بالفوضى، أما العلم فإنه يلازم النظام، حتى لو كان نظاماً مليئاً بالقبح.

والجمال هو هاجسي، هو قضيتي.

تحـول الذهـاب إلى العيـادة لممارسـة مهـنتي، حيث العلم، أمراً أشبه بالعقوبة التي عليَّ أن أؤديها كل يوم، وتحول الجلوس إلى الطاولة لابتداع الأحلام، حيث الأدب، إلى مكافأتي.

وحـين قـررت الكـتابة عـن قتيـبة، كـنتُ – ولم أسـتطع أن أدرك ذلك إلا الآن – مدفوعاً بدافع ذاتي قـوي: إنجـاز الانتصار إلى نهايته. تحطيم رجل العلم لمصلحة رجل الأدب. تحطيم رجل النظام، الذي لا بأس به حتى لو كان بشعاً، لمصلحة رجل الجمال، الذي يتسع لشيء من الفوضى.

وأمسـكتُ بـزمام المهمـة بـنجاح، ولكـن دون شجاعة. فأنا أتصرف منفرداً، دون خصم حقيقي يستطيع مواجهتي، والرد عليَّ.

جـردته مـن كـل جمـال. أطبقتُ عليه من جميع الجهات حارماً إياه من أية قضية، من أي حلم. كنتُ أدعي النزاهة، وأقول له إنه حر بطباعه، أو إن بعض خصاله تثير إعجابي.

لا. لم يزد ذلك عن مراوغة في المعركة الدائرة. كنتُ، في حقيقة الأمر، أنظر إليه بازدراء.

لكـنه أبـى أن يظـل مستسـلماً، بـلا أي دفـاع. خـرج عـليَّ من أعمق أعماق ذاتي ليمد لي لسانه قائلاً: خسـئت. لـن أتـركك تشـهّر بـي. وأين؟ في رواية. أنت تريد أن تجعل من تحطيمك لي، من هزيمتي، أمراً علنياً مدوياً إذن. لن أسمح لك بفعل ذلك مهما كلف الأمر.

خرج حاملاً وجهي، وطباعي.

وأكثر: فقد خرج أبهى مني، ممتلئاً بالحياة أكثر مني.

بل وأكثر:

فقد خرج حاملاً لحلمي نفسه.

أراد أن يقول لي: أنت تبتدع معارك وهمية. هاك إذن: العلم والأدب والفن والحب والجمال في مكان واحد، والحلم أيضاً.

بل وأكثر:

فهذا ليس بعد حلماً يُغنى. إنه حلم له طريق، وهذا الطريق ممكن، وليس مستحيلاً. إنه طريق يُسلك. بأقدامنا المتعبة نفسها يمكن أن يُسلك. لا يهم إن كانت متعبة. ما يهم فقط ألا تكون يائسة. ألا تكون فاقدة للإيمان بالجدوى.

وها هو قد انتصر الآن.

لا. ليس انتصاراً بالضبط.

لقد أعاد التوازن فقط. لقد استرجع بعضاً من مواقعه.

وقد مكنّه ذلك أن يستخدم يديَّ، يديَّ أنا، لتمزيق كل الأوراق التي كانت قد كُتبت عن شخصه، لتمزيق كل هذا الهراء.

ولم يبقَ من كل ذلك، إلا الحلم، ...وأنتِ.

لطالما اختلطت الأمور عليَّ بهذا الشكل:

منذ ذلك الزمن الذي أعلنتُكِ فيه أميرة لحلمي الخاص...

الذي نصَّبتُكِ فيه حاكمة مقررة يعود لها وحدها أن تعلن أين يكمن الجمال...

والأمور تختلط عليَّ.

أمسك القلم لأكتب عن حلم أناس متعبين، افتقدوا منذ زمن طويل ضوء الشمس، فأجدني أكتبكِ...

أعتزم أن أكتبكِ، فأكتب حلم أناس غابت عنهم لزمن طويل رائحة الزهر...

أعود لأكتب افتقادهم للنغمات، فأكتبكِ...

وأدخل في دوامة تجعلني أمزق في النهاية كل محاولة جديدة.

حسناً، ولكن إلى متى؟

إلى متى سأعجز عن إدراك أنكِ وضوء الشمس واحد، أنكِ ورائحة الزهر واحد، أنكِ والنغمات واحد...

متى سأنجح أخيراً في إزالة هذا التناقض الآخر: التناقض بينكِ حلماً لي أنا، وبين ضوء الشمس، حلماً لي أنا، ولكِ أنتِ، وللكثيرين ممن يشاطروننا هذه الأرض، التي شاءت لها الأقدار أن تكون في هذه الأيام معذبة حزينة.

متى سأفهم أنني في كل ذلك، وفيٌّ للأحلام.

الأحلام...

ستبقى هذه الكلمة رمزاً لما أعانيه، ولما أتنفسه من جمال.

أكتب عنها في أفولها، فأجدني أتحدث عن خريف اصفرّت أوراق أشجاره، وآلتْ إلى السقوط...

أكتب عنها في بهائها، فأستيقظ من نوم عميق لأجد أن ربيعها لم يكن سوى مجرد وهم...

لكن الحلم يظل حلمي...

وسيظل جميلاً بهياً طالما هو واقع في منطقة غامضة ملتبسة، بين الحقيقة والوهم.

لن أكذب على نفسي وأسميه "الحقيقة"...

ولن ينجح أحد في تجريدي منه، وإقناعي بأنه "الوهم"...

وأنتِ...

أين أنتِ من هذا كله؟

أنتِ، تشبهينه تماماً...

تتحركين في تلك المنطقة الملتبسة نفسها، ما بين الحقيقة والوهم.

لن أكذب على نفسي وأسميكِ "الحقيقة"...

ولن ينجح أحد، ولن تنجحي، في إقناعي بأنكِ "الوهم"...

وسأظل أسأل نفسي: متى سأنجح أخيراً في إزالة هذا التناقض، في إزالة ذاك التداخل؟

وسأظل أسأل نفسي:

متى سأتمكن أخيراً من أن أكتبكِ؟

تمت في ١٩٩٩/١١/٨

مؤقتاً، إلى أن ... يكتبكِ